روايات عبير

سجينة الغجر

www.elromancia.com

مرموزة

No. 026

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

روايات عبير

سجينة الفجر

لا يأتي الحب على أجنحة من حرير.. بل يجئ كدفق صاخب يجتاح القلب ويأسره..
وفي شباك الأسر فلما يفكر المحبوب في الخلاص من قيود أقوى من الفولاذ.
وعندما قامت (لين) برحلتها إلى أيرلندا.. لتنفض إرهاقات العمل الطويل بين الربوع والبحيرات والجبال، لم تكن لتصدق أن رحلتها ستتحول إلى كابوس مرعب.. وسجن حقيقي مؤلم.
فقد تصادف أن تعطلت سيارتها بقرب مخيم للغجر.. وأفلتت بمعجزة من الغجري المتشرد القذر.. لكنه طاردها في الغابة وسجنها داخل عربة حقيرة.. وأجبرها على الزواج على طريقة الغجر.. وباتت الفتاة الرقيقة الجميلة أسيرة السجن والمعاناة والألم..
لكن الحب تسلل إلى قلبها المحزون.. ولم تفلح في مقاومته..!!

I.S.B.N. 977-376-056-1

TIHAMA تهامة
RAHYAT ABEER
30905242 SR-10

سوريا	٧٥ ل.س	البحرين	٧٥٠ فلس
مصر	٥ جنيه	قطر	
لبنان	٢٥٠٠ ل.ل	مسقط	٥٠
الأردن	١ دينار	المغرب	٥
السعودية	١٠ ريال	ليبيا	م
الكويت	٧٥٠ فلس	تونس	م
الإمارات	١٠ درهم	اليمن	٢٠٠ ريال

9 789773 760564

No.026

روايات عبير

سجينة الغجر

آن هامبسون

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

www.rwayatmasria.com

اسم السلسلة : روايات عبير
اسم الكتاب: سجينة الفجر
الاسم الأصلي: BELOVED VAGABOND
اسم المؤلف: آن هامبسون
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٤/٤٥٨٥
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-376-056-1
جمع اليكترونى: فور إتش ت:٠١٠/٦٦٧٤٣٣٥
تصميم واخراج الغلاف: وائل سلامة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
٢٠٠٦

تطلب كافة منشوراتنا:
حلب: الجميلية أمام مسرح نقابة - ت: ٢٢٥٦٨٦٠
دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد ٢٢٣٦٧٢٨

الدار العربية للكتاب
دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ١٣٣٤٤ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٩١٦١٢٢
Email: darkitab2003@yahoo.com

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

روايات عبير 026

سجينة الفجر

١. الاختطاف

كانت السيارة تسير على مهل فى الطريق الساحلى، تجلس خلف مقودها فتاة جميلة تتأمل روعة المشهد الطبيعى. هضاب خضراء تمتزج أطرافها برمال الخليج الصغير الذهبية وتحجب قسماً منها أشجار عالية مورقة.

كانت لين سلدن تنوى قضاء العطلة فى إيرلندا الجنوبية برفقة صديقة لها، لكن صديقتها اعتذرت عن المجىء فقررت لين المضى فى رحلتها وحدها. انتقلت من انجلترا إلى أيرلندا بحراً وشحنت سيارتها على الباخرة نفسها.

أمضت الفتاة إلى الآن عشرة أيام رائعة تتنقل فى أرجاء أيرلندا الخضراء الساحرة. جمال الطبيعة أنساها وحدتها فلم تكن تتذكر ذلك إلا عند رجوعها فى المساء إلى الفندق لتخلد للنوم. وبعد أن أمضت لين يومها فى مدينة دونيغال استعدت للعودة إلى الفندق الواقع فى أطراف المدينة، لتتوجه فى الصباح الباكر جنوباً نحو دانليرى، حيث ستستقل الباخرة بعد أيام عائدة إلى انجلترا.

أوقفت السيارة إلى جانب الطريق وأخرجت من حقيبتها خريطة

المنطقة. عيناها تحدقان فى الخريطة، فى حين أن فكرها شارد فى أمور أخرى وخاصة فى عرض الزواج الذى تلقته قبل أسبوعين من زميلها فى العمل توماس. إنه شاب لطيف ومهذب لكنه لا يتمتع بأية جاذبية لا بل هو، كما وصفته إحدى زميلاتها، بليد ومثير للضجر. وعدته لين بالتفكير جدياً فى الأمر لأنها بدأت تشعر بالملل من العيش وحيدة فلا بأس بفكرة الاستقرار مع رجل طيب ورقيق لبناء عائلة جديدة.

إلى جانب ذلك، هناك سبب آخر يجعل لين تأخذ فى الاعتبار عرض الزواج. وهو شعورها بالأسف نحو توماس الذى فجع بخيانة زوجته له وانفصالهما بالطلاق. وجدت الفتاة فى معاناته قواسم مشتركة مع ما تعرضت له حياتها العائلية. تمتعت لين بطفولة سعيدة بين والدين محبين وفى منزل وافر الأمان، لكن والديها انفصلا عن بعضهما وهى لم تتجاوز بعد السبعة عشر ربيعاً بعدما وجدا أن طريق كل منهما يختلف عن طريق الآخر. وخلال ثلاثة أعوام تزوجت أمها من رجل أميركى وهاجرت معه إلى أميركا، كما أن والدها تزوج من سيدة أقنعته بالهجرة إلى استراليا. وهكذا أصبحت لين وحيدة وهى فى العشرين، تعيش دون عائلة. لذلك قررت أن تجد الرجل الذى ينتشلها من عذابها ويقاسمها حياة هنيئة.

أيكون هذا الرجل توماس؟ سؤال لم تجد له بعد جواباً شافياً. تنهدت وهى تقود السيارة فى طريق فرعى ضيق محاط بأشجار عالية. بعد أن توغلت بضعة كيلو مترات وصلت إلى غابة كثيفة تقع فى وسطها بحيرة جميلة يقوم قربها مخيم للفجر. وجود جماعات الفجر

فى أيرلندا أمر مألوف أكثر من وجودهم فى انجلترا. غريب أمر هؤلاء القوم ينتقلون من مكان إلى آخر، لا يحبون الاستقرار كبقية البشر، يبحثون عما لا يجدون فيستمرون فى التجوال.

فجأة، إذ تجاوزت السيارة أولى عربات الفجر، أصدر المحرك صوتاً قوياً ثم توقف. ترجلت لين من السيارة عابسة والتف حولها عدد من الأطفال الفضوليين. ثم تقدمت منها غجريتان فيما هى منهمكة بالنظر إلى المحرك تحاول عبثاً معرفة سبب العطل، وبرز من بين الجميع شاب أسمر اللون عارضاً المساعدة. رفعت لين عينيها لترى شاباً طريلاً مفتول العضلات، أسود العينين، أجعد الشعر. نظراته الثاقبة أرعبتها فبلعت ريقها من الخوف.

قالت له أخيراً:

ـ تعطل محرك سيارتى.

ـ هل نفد منها الوقود؟

أومأت لين بالنفى وأجابت:

ـ الوقود فيها أكثر من كاف.

وجدت الفتاة نفسها تحدق. لاحظت تعالياً وغطرسة فى هذه الملامح يجعلانه مختلفاً عن بقية قومه. فالغجر عادة أناس بسطاء متواضعون، علمهم الفقر ان الخضوع هو الوسيلة الوحيدة لكسب أرزاقهم.

ـ بما أن الوقود متوافر لا أعلم سبب الداء. نحن نستعمل الجياد لا السيارات، لذلك خبرتى فى المحركات ضعيفة جداً. كل ما يمكننى فعله

www.elromancia.com

هو ارسال أحد إلى المدينة ليحضر ميكانيكياً.

كانت تدرك أنه كاذب من خلال نظراته الشغوفة والفاحصة. ولأنها لمحت شاباً يتوجه على حصانه نحو المدينة ليحضر الميكانيكى.

شعرت بالحرج وهى واقفة بين هؤلاء الغجر. فبدأت تتمشى حتى ابتعدت عن المخيم فى طريق موحش، تحيط بجانبيه خضرة عذراء، تبدو من خلالها مياه البحيرة مرآة تنعكس على صفحتها بفرح أشعة الشمس الذهبية.

وبينما هى تتأمل شاعرية المكان وسحر وجوه الغامض، سمعت وقع خطى تتقدم منها على مهل فارتعدت. إنه الغجرى الأسمر. تراءت لها أشياء كثيرة مرعبة إذ رأته يقترب منها بكل ثقة. وخانتها شجاعتها حتى كادت تصاب بالاغماء.

تحدث الشاب بنبرة آمرة:

ـ أنت انجليزية، أليس كذلك؟ ظننت فى البدء أنك أميركية.

توقف عن الكلام واقترب من الفتاة. عضلاته القوية يبرزها قميصه الأسود الضيق و«غجريته» يدل عليها الشال الأحمر القذر الملفوف حول عنقه. لو أراد فنان رسم متشرد لوجد فيه النموذج الأمثل. ارتجفت لين تراودها فكرة الفرار ولكن الغجرى لم يدع لها الفرصة لتجد منفذاً. تقدم منها بغتة وأطبق على ذراعها دافعاً إياها إلى مكان كثيف بالأشجار خلال ثوان صارت بين ذراعيه القويتين.

صرخت بأعلى صوتها:

ـ أيها الوحش!

لم يأبه الرجل لكلماتها بل وطوقها ضاحكاً وكأن مقاومتها تزيد لعبته اثارة. وبينما هو يهم بطرحها أرضاً داس أحدهم على غصن يابس فسمع صوت انكساره عالياً. التفت الرجل وهو يزمجر غضباً لتظهر فتاة غجرية جميلة يتطاير الشرر من عينيها:

ـ ألم تشبع من أفعالك القبيحة بعد؟ دع الفتاة وشأنها أيها الوقح!

ذهلت لين لاطاعة الرجل الشرير أوامر الغجرية من دون نقاش. وما كاد يحرر يدها المليئة بالخدوش حتى أطلقت ساقيها للريح.

جلست لين تفكر فى كيفية افلاتها من قبضة الغجرى الأسمر. ولحسن حظها وجدت أتوبيساً أقلها إلى الفندق فى المدينة، ومن هناك اتصلت هاتفياً بجراج للسيارات فتكفل الميكانيكى باصلاح السيارة وجلبها فى اليوم التالى بعد أن تبين أن العطل كان بسيطاً للغاية.

سارعت لين بعد ذلك إلى مغادرة المنطقة. وساهم انتقالها بين الطرقات الجميلة على نسيان الحادثة الأليمة. فاستعادت روحها المرحة ورغبتها فى اكتشاف المزيد من أيرلندا.

وصلت إلى منطقة تدعى لاف كوريب حيث وجدت المشاهد رائعة تحبس الأنفاس. الجبال، المراعى الواسعة، البحيرات، الغابات... كلها مناظر خلابة تسحر الألباب، تمتع العين والنفس وترحب بانسان المدينة التعب لينفث فى رحابها الهموم. وصلت إلى واد أخضر تبحث عن مكان تمضى فيه ليلتها. ووفقت فى العثور على المكان الملائم، مزرعة صغيرة يستقبل أصحابها النزلاء فى جناح خاص مقابل مبلغ قليل من المال.

www.elromancia.com

أوصلتها المرأة صاحبة المزرعة إلى غرفتها البسيطة النظيفة. وأطلت لين من النافذة لتشاهد المنظر الجميل والجبال تكسوها الغابات الكثيفة. ثم لاحظت مدخنة بعيدة فى وسط جبل أخضر.

سألت لين المرأة وهى تشير إلى المدخنة:

- أهذا بيت فى الجبل؟ أظن أنى رأيت مدخنة.

- نعم، هذا قصر السيد دوغى.

لاحظت الفتاة تغيراً فى نبرة المرأة التى تابعت تقول:

- السيد دوغى هو مالك كل هذه الأراضى، وقد ورثها عن والده الذى كان الحاكم الاقطاعى للمنطقة. بناء فخم تحيط به حدائق رائعة.

- هل يسمح للجمهور بزيارة الحدائق؟

- نعم، الأبواب تفتح للزوار يومى الثلاثاء والسبت .

- أود لو سمحت يا سيدتى أن أحجز هذه الغرفة ليومين .

- أمرك يا آنسة سلدن بامكانك حجزها المدة التى تريدين، فهناك أشياء كثيرة يمكنك القيام بها فى هذه المنطقة. باستطاعتك مثلاً، إذا كنت تجيدين ركوب الخيل، استئجار جواد من مدرسة الفروسية والتوجه إلى الغابات.

أعجبت لين بهذه الفكرة فهى لاتزال تجيد الفروسية التى تعلمتها أيام الطفولة.

انطلقت لين ظهر السبت صوب حدائق قصر دوغى. وبعد أن سلكت بسيارتها طريقاً منحدراً وصلت إلى سفح التلة التى يقوم عليها

القصر وبدأت بالصعود نحوه إلى أن بلغت سوراً كبيراً فى وسطه بوابة مفتوحة يقف بجانبها حارس يرتدى ثياباً أنيقة.

دخلت إلى موقف مخصص لسيارات الزوار بعد أن دفعت مبلغاً صغيراً يذهب إلى الأعمال الخيرية.

أخيراً وجدت لين نفسها تتجول فى هذه الجنة الساحرة. أينما نظرت وجدت جمالاً وبهاء. ممرات تظللها أشجار سخية. برك ماء صغيرة تغطيها الزنابق. جداول تتدحرج بين الصخور تعلوها جسور خشبية صغيرة مكسوة بالنبات المتسلق تماثيل بديعة وسط نوافير مياه وتشكيلات من أجمل الزهور وأزهاها. توقفت لين مراراً لتقرأ أسماء الأشجار والأزهار النادرة، فتحت كل مجموعة وضعت لوحة صغيرة فيها شروحات موجزة عن النوع. كما قرأت على إحدى اللوحات أن شرفات الجهة الجنوبية من القصر صممتها السيدة موريل زوجة الكونت دوغى حاكم المنطقة فى القرن التاسع عشر.

وصلت لين خلال تجوالها إلى حديقة مليئة بأشجار الزيزفون وشجيرات أخرى أجنبية. حديقة أقل ما يقال فيها أنها فاتنة جعلت الفتاة تنسى كل شىء وتعتبر أن العالم تقلص كثيراً ليصبح هذا المكان الخلاب الذى لا موطىء قدم فيه لحزن أو لهم. لم تتمكن من كتم شعور بالحسد تجاه مالكى القصر. وتمنت لو تكون مكانهم.

حان وقت العودة إلى الفندق وتساءلت لين: كيف يتمكن سكان القصر من حبس أنفسهم فى الداخل عندما تفتح الأبواب للزوار؟

فيما هى متوجهة إلى البوابة الرئيسية لاحظت لين مجموعة من

www.elromancia.com

الزوار ملتفين حول نافذة من نوافذ القصر. تقدمت منهم يدفعها فضول الاكتشاف فسمعت الحوار الدائر بينهم.

قالت سيدة متوسطة العمر:

- هذه اللوحة تمثل والدته.

علقت سيدة أخرى:

- لقد كانت رائعة الجمال.

- من المؤسف أنها أقدمت على هذا العمل!

- يقال أن علماً أسود رفع على شرفات القصر بعد الحادث.

- وما معنى ذلك؟

- معناه أنها اعتبرت ميتة بالنسبة لعائلتها بعد العار الذى سببته لهم.

- قيل أنها ماتت بعد ذلك بوقت قصير، أليس كذلك؟

- ماتت وهى تضع طفلها.

- وهل تعهد أهلها الطفل؟

- البعض يؤكد ذلك.

- لكنه أصبح مالك القصر وسيد الأراضى الآن برغم كل ما حدث.

- السيد دوغى عثر على هذه اللوحة، وأمر بوضعها هنا ليعيد الاعتبار إلى والدته المنبوذة.

- يا لها من قصة محزنة! كم يبلغ دوغى من العمر؟

- أعتقد أنه أصبح فى الثلاثين.

- هل هو متزوج؟

- لا. هناك اشاعات كثيرة عن علاقة تربطه بممثلة سينمائية كبيرة. لكنها أخبار ملفقة لا تمت إلى الحقيقة بصلة. يقال عنه أنه يؤمن بالحب من أول نظرة، وعندما يجد ضالته المنشودة سيتزوج فوراً.

- أتمنى لو أستطيع رؤيته لأنه، كما سمعت، شاب باهر الجمال.

- ما يميزه عن غيره من الرجال هو قصته المحزنة.

- ما هى القصة الحقيقية التى وقعت لأمه؟ أنا لا أعرفها كاملة.

- يقال أنها هربت مع...

لم تسمع لين من القصة أكثر من ذلك. لأن المجموعة ابتعدت عنها باتجاه قسم آخر من الحديقة. نظرت من النافذة إلى داخل القصر حيث علقت اللوحة المعنية فرأت رسم امرأة رائعة الجمال ترتدى فستاناً من الحرير الأزرق. وعلى بساطته، لا يخفى وجهها نظرات أرستقراطية واضحة فى العينين الزرقاوين. شفتاها الورديتان ترسمان ابتسامة السعادة والبراءة. من المحزن أنها ماتت عند الولادة.

خرجت لين من الحدائق وهى تفكر بهذه القصة التى لم تتمكن من معرفة كل فصولها. شعرت بفضول كبير لمعرفة الحقيقة وللتعرف إلى صاحب القصر الذى انقذ لوحة والدته لينقذ شرفها الضائع.

فى الصباح التالى استعدت لين للرحيل. بعد أن سددت الفاتورة ووعدت بالعودة إلى المزرعة فى رحلتها المقبلة إلى أيرلندا، توجهت إلى

www.elromancia.com

مدرسة الفروسية حيث تركت السيارة فى موقف خاص وترجلت لتستأجر حصاناً. قررت أن تقوم بنزهة صغيرة على الحصان قبل ذهابها إلى منطقة جديدة. ووقع اختيارها على فرس قوى.

- هل هو حصان هادئ؟

أجابت الفتاة المسؤولة عن الاسطبل:

- فونيلا أفضل حصان عندنا. وأنا واثقة من أنك ستفتقدينه كثيراً عندما تنتهين من جولتك.

حدقت الفتاة فى لين جيداً وتأملت الوجه الرقيق والشعر الأسود الطويل المعقود بشريط أبيض. كما أعجبت بالقامة الرشيقة وخصوصاً بالساقين الطويلتين والخصر الضامر. لاشك فى أن لين فتاة جميلة تجذب الرجال وتدير رووسهم...

بعد قليل كانت الفتاة الإنجليزية تمتطى جوادها فى الغابة التى أرشدتها إليها فتاة الاسطبل حيث يمكنها التجول بحرية وحيث لا خطر بأن تتوه لأن اللافتات منتشرة فى الغابة خصيصاً لارشاد المتنزهين.

كانت اشعة الشمس الساطعة تنفذ من بين الأوراق الكثيفة بحياء، مضفية على الجو الداكن اشراقة من السحر وومضة من الغموض.

- يا إلهى! كأننى فى الجنة!

ضحكت لين مسرورة لأنها تتمكن من الكلام والتفكير بحرية مطلقة فى هذا المكان. كأن العالم أصبح ملكها لا ينازعها فيه أحد.

- حسناً يا حصانى الجميل، لنرتح قليلاً هنا.

ربطت الحصان إلى شجرة ووقفت تتأمله يلتهم العشب الطرى بنهم.

أجفلت لين عندما سمعت صوتاً غريباً. وأخذت تحدق حولها لترى مصدر الجلبة. وشعرت بأن أحداً يراقبها فى هذه الغابة الموحشة. تلفتت فلم تسمع إلا خفقة ورقة صفراء يحملها النسيم.

فجأة سمعت صهيل حصان فاقتربت من فرسها وحلت الحبل بيدين مرتجفتين. وقبل أن تستطيع الانطلاق بالفرس والابتعاد اقترب منها حصان يمتطيه... الغجرى الأسمر.

تجمد الدم فى عروقها لما رأت الغجرى أمامها... كيف استطاع الوصول إلى هنا من مخيمه البعيد بهذه السرعة؟ لا يعقل أن يكون جاء على حصانه لأن المسافة بعيدة إلى حد يجعل ذلك مستحيلاً لابد أنه استعمل وسيلة أخرى. ثم، من أين أتى بهذا الحصان الأصيل الذى لا يمكن أن يملكه غجرى فقير؟

رفعت عينيها إلى وجهه، لاحظت أشياء لم تلحظها فيه عندما حاول الاعتداء عليها بعد تعطل سيارتها قرب المخيم. رأت إلى جانب وسامته مسحة أرستقراطية نبيلة وشيئاً من اللباقة والاستعلاء. يده الممسكة باللجام بدت أنعم، تدل على أنه لم يقم بعمل يدوى فى حياته. حتى ثيابه تبدلت، لم يتخل عن قميصه الأسود لكن الشال الأحمر الوسخ اختفى ليحل مكانه شال آخر نظيف. السروال الممزق تغير ليصبح سروالاً أنيقاً... لاشك أنه سرق الحصان والثياب، ولكن كيف تبدلت يداه من يدى متشرد إلى يدى أرستقراطى نبيل؟ وقف الغجرى يحدق فيها باستغراب كأنه فوجئ بوجودها.

www.elromancia.com

حطم جدار الصمت أخيراً بقوله:

- صباح الخير.

أخذت لين تحسب فرص الهرب وجسمها الرقيق يرتعش خوفاً وغضباً. نظرت صوب الممر القريب الذى يوصلها إلى مدرسة الفروسية وبخفة لم تعهدها فى نفسها من قبل قفزت إلى الحصان والسوط فى يدها. انطلقت بسرعة وكى تعاقب الغجرى على فعلته وتؤخره عن اللحاق بها ضربته بالسوط على وجهه. وضع الرجل يده على خده الدامى وقد ارتسم على وجهه ذهول كبير.

- تستحق أكثر من ذلك أيها الغجرى المتشرد! كيف تجرؤ على التحدث إلى؟ عد إلى قومك ولا تتحرش بالناس المتمدنين!

قالت لين كلماتها هذه وهى منطلقة على على حصانها تحثه بضربات خفيفة من قدميها على الاسراع فى العدو. أخذت تخترق الغابة بسرعة عمياء وخوفها يتعاظم مع اقتراب صوت حوافر جواده منها. إذا تمكن من اللحاق بها سيقتلها ويرميها فى الغابة! ازداد هلعها لهذه الفكرة ولم تعد تدرى ما تفعل لتخرج من الورطة المميته. أخذ الحصان يقترب منها أكثر فأكثر وصاح فيها الرجل:

- توقفى!

استمرت بين فى العدو بأسرع ما يمكنها. لكنها ضلت الطريق بسبب ذعرها الشديد ولم تجد ممر الخروج من الغابة. فصارت تصرخ بأعلى صوتها:

- النجدة! النجدة!

دب التعب فى حصانها فخفت سرعته فى حين أن حصان الغجرى الجبار ما أنفك يدنو منها.

- توقفى وإلا أوقعتك عن الفرس!

تجاهلت الفتاة أوامره باحثة دون جدوى عن وسيلة للافلات.

- دعنى وشأنى! أرحل عنى. سأبلغ رجال الشرطة...

توسلات وتهديدات لن تجدى نفعاً مع هذا الرجل الشرير. أخيراً صار الغجرى بمحاذاتها فبذلت المستحيل للصمود فوق حصانها المرهق. مال الرجل وخطف من يدها اللجام أجبر الفرس على التوقف. ثم نزل عن حصانه وأنزل لين عن حصانها. شعرت الفتاة أنها سجينة نظراته الغاضبة ووقفت عاجزة عن الحراك.

رفع الغجرى يده إلى خده الدامى يتحسس الجرح العميق الذى سببته ضربة السوط.

- هل هو حصانك؟

- لا، استأجرته من مدرسة الفروسية.

هز الرجل رأسه وكأنه يعرف المدرسة. ثم أخذ يحدق فى الفتاة لثوان مرت ثقيلة كأنها الدهر قبل أن يقول:

- لا خوف على الحصان. إنه يعرف طريق العودة إلى الاسطبل.

وضرب فونيلا ضربتين خفيفتين فبدأ بالعدو حتى اختفى عن نظر لين بعد قليل.

- من أين أنت؟

www.elromancia.com

- أنا انجليزية وجئت إلى أيرلندا لأمضى أجازتى السنوية... أنزل فى مزرعة قريبة من هنا.

هز الرجل رأسه كأنه يعرف المزرعة كذلك.

- قلت أنك فى أجازة، فهل يعنى هذا أنك بمفردك؟

- تماماً، أنا أجوب البلاد بسيارتى التى تركتها فى موقف قريب من الاسطبل.

واصل الرجل طرح الأسئلة، وواصلت لين الاجابة دون أن تدرى مدى الخطأ فى إعطائه معلومات يجب أن لا تطلعه عليها. ولم تع ذلك إلا عندما سمعته يقول:

- أنت وحدك هنا...

وعندما سألها لماذا ضربته بالسوط أجابت لين وفى صوتها نبرة الازدراء:

- لأنك وجنسك حثالة المجتمع ورعاع القوم!

سرعان ما ندمت لتهورها وطيشها إذ رأت فى عينى الرجل عاصفة من لغضب ونية على ارتكاب عمل شرير. اقترب منها وزمجر:

- حثالة المجتمع ورعاع القوم؟ ستدفعين ثمن كلماتك غالياً.

وبسرعة حملها فى قوة ورمى بها على ظهر الحصان، ثم قفز خلفها وانطلق مسرعاً نحو عمق الغابة.

تساءلت لين عما ينوى الغجرى فعله بها ولكنها لم تفلح فى تصور مصيرها يعزز ذلك غضب أقرب إلى الجنون يسيطر على خاطفها.

ازداد الحصان توغلاً فى الغابة ولين تكاد تصاب بالاغماء، والرجل ملتصق بها تحس بنفسه يلفح عنقها وهو يقود الحصان بسرعة كبيرة. أخذت ترتعد كورقة خريفية وهى تسأل نفسها عما فعلته لتستحق هذه النهاية السوداء. أخيراً قرر الرجل التنازل عن صمته فأعلن:

- نحن ذاهبان إلى المخيم.

- المخيم.. أى مخيم هذا؟

قهقه الغجرى عالياً يتلذذ بخوفها وأجاب:

- ألا تعلمين أن الغجر يعيشون فى مخيمات؟

- ستندم أيها الحقير على عملك لأن رجال الشرطة سوف يرمون بك فى السجن!

كانت تعلم فى قرارة نفسها أن كلامها لا يرهب الرجل، فالغجر «محترفون» فى الخروج على القانون. ولا يهابون السلطة. القانون الوحيد الذى يحترمونه هو أن الغاية تبرر الوسيلة. وأن مصلحة القبيلة يجب أن تكون الأهم بغض النظر عن أى اعتبار. واصلت لين بالرغم من ذلك تهديدها لعلها تنجح فى العثور على نقطة ضعف فى الغجرى:

- تكون أحمق إذا اعتقدت أن بامكانك الافلات من قبضة العدالة. الاختطاف جريمة يعاقب عليها القانون بشدة!

لم يعلق الرجل بشىء وظلا صامتين حتى وصلا إلى المخيم حيث انتشرت عربات كثيرة. نظرت لين إلى الوجوه التى تنظر إليها فلم تتعرف إلى أحد من الذين رأتهم عندما تعطلت سيارتها. كما لم تجد تلك الفتاة التى أنقذتها يومها من الغجرى لعلها تعيد الكرة الآن.

www.elromancia.com

تعالت صيحات الترحيب بالغجرى:

- أهلاً بك يا رادولف!

- ما هذه الغيبة الطويلة؟

- أخيراً عدت إلينا.

نشأ لدى لين انطباع بأن الغجرى لا ينتمى إلى مخيم معين. وتأكدت من أن هذا المكان ليس المكان نفسه الذى شاهدته.

تقدم من الغجرى رجل كهل وقال:

- رادولف، ليس من عادتك...

اسكته رادولف باشارة من يده، ولكن الكهل تابع:

- ماذا حدث لوجهك؟ الدماء تسيل منه بغزارة!

عندها رأت لين الجميع يلتفون حول رادولف وعلامات التعجب بادية على وجوههم. سمعت بعض الكلمات الانجليزية لكن معظم الكلام كان باللغة الغجرية التى تجهلها. أوضح رادولف الأمر لقومه بلغتهم ونظراته المليئة بالحقد تصب نارها على الفتاة المصابة بذهول مطبق. امسك بخصرها وأنزلها عن الحصان فتعالت ضحكات من حولها، وكأن القوم يستعدون لمرح آت ولاثارة توفرها لهم ضحية جديدة يتسلون بها...

زادت الدماء المتجمدة على وجه رادولف من رهبة شكله، وجعلته يبدو مجرماً أكثر وأكثر. أيمكن أن تتوقع رحمة من إنسان كهذا لا يهتم إلا بارضاء غرائزه، لا يعرف المثل والمبادىء التى تؤمن بها المجتمعات

المتحضرة؟ حاولت الفتاة ألا تفكر بما ينتظرها، لكن الرؤى السوداء كانت تغلف ذهنها كغمامة داكنة. تمنت لو أنها تموت! فالموت أرحم من العذاب القابع وراء الساعات المقبلة... تمنت لو أن يدى رادولف الجبارتين تلتفان حول عنقها الغض وتعصران منه آخر قطرة حياة...

انصرف رادولف إلى حديث طويل مع الرجل الكهل. سمعتهما لين يتلفظان ببعض الأسماء: أولاف، بوريل وغيرهما. وفهمت أن الكهل هو أولاف وأنه ورادولف يتحدثان عن بوريل، ولكنها لا تعلم ما إذا كان بوريل اسماً لامرأة أو لرجل. حدقت الفتاة فى وجه رادولف لتجد الاضطراب والقلق الشديدين باديين عليه. فى حين كان أولاف يتنهد من وقت إلى آخر ويزم شفتيه بامتعاض. ما هو الحديث المهم الدائر بين الرجلين؟ سؤال لا يمكنها أن تجيب عليه قبل أن تفهم هؤلاء القوم.

بعد ذلك بدأ القوم يوجهون الأسئلة إلى رادولف فيجيب عليها باقتضاب، والأولاد الحفاة ذوى الثياب البالية يحملقون فى ثيابه النظيفة والأنيقة بانبهار.

نظر رادولف إلى لين فعاد إلى عينيه لمعان الشر. وبلمح البصر حملها بين يديه وسط ضحكات الجميع إلى عربة أرشده إليها اولاف. صاحت لين فى الغجر:

- هذا الرجل خطفنى! ستحاكمون جميعكم إن لم تساعدونى!

نظرت حولها تبحث عن أحدهم يتعاطف معها فلم تقع إلا على وجوه ضاحكة ونظرات ساخرة. لا امل إذن بأن يساعدها أحدهم فالجميع وحدة متماسكة والأفراد يتعاونون حتى على أعمال الشر.

أدخلها رادولف إلى العربة ثم خرج بسرعة بعد أن أغلق الباب بعنف. هنا، فى هذه العربة، لن يتدخل أحد لانقاذها. عليها أن تواجه وحدها الرجل الذى يبدو زعيماً أو ملكاً على قومه يذعنون لمشيئته بدون نقاش. اغرورقت عيناها بالدموع فساعة العقاب حلت. شرعت تبحث فى العربة عن وسيلة للخروج من سجنها الصغير. مكان قذر فيه أريكة وطاولة مستديرة مع بعض الكراسى العتيقة. فى الطرف الاخر سرير ضيق، وعلى الخزانة كتب قديمة ووضع مصباح زيتى يغطيه غبار سميك. كأن أحداً لم يشغل هذه العربة منذ وقت طويل فالقذارة المنتشرة فى أرضها وعلى محتوياتها لا توصف.

فى خلدها تدور أسئلة كثيرة. من هو رادولف بالحقيقة؟ من هو بوريل الذى تحدث رادولف واولاف عنه بكثير من الجدية؟ لكن السؤال الأكثر أهمية والحاحاً يبقى: ماذا سيكون مصيرها؟

٢ . الغجرى وأنا

دخلت لين إلى زاوية صغيرة فى العربة يفترض أنها مطبخ. كانت فيه مغسلة قذرة وفرن صدىء قديم يعمل على الغاز. لم تتمكن الفتاة من تحمل الرائحة التى تدعو إلى الغثيان. ولما همت بالخروج سمعت أصواتاً قريبة فى الخارج. أطلت من النافذة الضيقة فرأت رادولف وأولاف يتحدثان وحيدين بالانجليزية فربضت لين تحت النافذة من دون أن تدع رأسها يطل وأخذت تسترق السمع.

ـ أعرف أن الأمر يقلقك يا رادولف لكنه حر فى اختيار طريق حياته.

ـ لا تقنعنى أنه محق فى سلوك هذا الطريق!

ـ أوافق معك والدليل أنى بحثت عنه كثيراً كما طلبت منى، لكنه مراوغ كبير ولا يهدأ فى مكان.

ـ أعلم ذلك يا أولاف وإلا لما كنت رأيتنى هنا. فقد أخبرنى أيفور أنه فى هذا المخيم.

ـ كنت قادماً إلى هنا اذن عندما خطفت الفتاة.؟

ـ بالطبع، وإلا لما...

www.elromancia.com

- ماذا تنوى أن تفعل بها يا رادولف؟

- سأجعلها تدفع الثمن غاليا لضربى بالسوط ولوصفها إياى بالغجرى المتشرد، حثالة المجتمع.

- أعذرها يا رادولف، فالناس يملكون أفكاراً خاطئة عن الغجر.

- أنا لا أعذر أحداً يجرؤ على إهانتى!

- لكنها تبدو فتاة طيبة فلا تحطم حياتها.

تكلم الغجرى الشاب بكل تصميم وجدية:

- اسمع يا صديقى، أنا أنوى أن أنال منها التعويض المناسب عن إهانتى، فإذا لم تتمكن من تحمل ذلك لن يكون الذنب ذنبى.

أدركت لين من لهجته القاسية أن الرجل ليس مستعداً للعودة عن قراره وأنه ينصاع لغرائزه ضارباً عرض الحائط كل الاعتبارات. حاول اولاف من جديد أن يثنيه عن عزمه:

وأنت تعلم أن الاختطاف جريمة خطيرة يعاقب عليها القانون بصرامة. عليك أن تفكر بوضعك الخاص يا صديقى فنحن بغنى عن المشاكل. ظننت أن الأيام كانت كفيلة بتهدئة طباعك الحادة بعض الشىء وبتعليمك كيف تكبح جماح أعصابك.

تساءلت لين عن الوضع الخاص الذى تكلم عنه الغجرى الكهل. أيعنى به أن رادولف هو «ملك» الغجر فى كل أيرلندا؟ تفسير معقول قد يوضح كلمة الوضع الخاص والاحترام الذى أظهره هؤلاء القوم للرجل، كما يوضح كذلك عدم استقراره فى مخيم واحد وتنقله المستمر من منطقة إلى أخرى.

- أتعتقد أنى خائف من العقاب يا اولاف؟ ألا تعلم أنى لا أحسب حساب النتائج عندما أقرر الإقدام على خطوة أنا مقتنع بها؟

فهمت الفتاة من كلماته أنه معتاد على هذه الأعمال وأن خبرته فيها طويلة بحيث لا يخاف الوقوع ف أيدى العدالة. لكن اولاف ما يزال قلقاً. ولم يشارك صديقه مرحه إذ قال بكل جدية:

- أحس بنفسى مسؤولاً لأنى كنت أعلم منذ البدء...

قاطعه رادولف مطيباً خاطره:

- أشكر تفهمك يا عزيزى.

صمت الكهل قليلاً ثم واصل محاولاً اقناع صديقه الشاب:

- ولكنى آسف للفتاة المسكينة.

- لا أدع للأسف لأنها أوصلت نفسها إلى هنا بحماقتها!

- هى انجليزية أليس كذلك؟

- تماماً.

- إذن لابد أن يكون أحد ما قد بدأ البحث عنها. عائلتها ربما...

- غير ممكن يا اولاف فالفتاة وحيدة هنا.

- من قال ذلك؟

- قالت لى بأنها تمضى أجازتها فى أيرلندا وتجوب البلاد وحيدة بسيارتها.

- اسمع يا رادولف، تبريراتك لا تقنعنى بصحة عملك.

www.elromancia.com

- لن أتراجع عن خطوتى أبداً!

- ولكنك ستوقع نفسك فى مشكلة كبيرة.

- لا تقلق يا صديقى. لن يبحث عنها أحد إذ يفترض أنها تركت الفندق الذى كانت تقيم فيه واتجهت إلى منطقة جديدة.

- ولكن أين السيارة التى تكلمت عنها؟

أخبره رادولف بكل التفاصيل وبأن السيارة مفتوحة والمفاتيح ماتزال بداخلها. عندها فقط أدركت لين أنها أخطأت عندما صرحت للرجل بحماقة لا مثيل لها بكل ما يسهل له اتمام جريمته.

ابتعد الرجلان قليلاً فلم تعد الفتاة تتمكن من سماع بقية الحديث ولكنها استطاعت التقاط جوهره.

- عليك احضار سيارتها بأسرع ما يمكن يا اولاف كى لا تبدأ الشكوك تحوم حول وجودها فى الموقف.

- لا ارتاح لعملك يا صديقى. هذا ليس من طبيعتك بل...

تلاشت الأصوات إذ ابتعدا كثيراً عن النافذة. ففشلت لين مرة جديدة فى اكتشاف اللغز الذى بدأت تشعر بوجوده فى حياة هذا الغجرى الذى ظهر من العدم ليقلب حياتها.

ماذا سيفعل الآن بالسيارة؟ لكم كانت غبية عندما اطلعته على كل شىء. لو لم تفعل لكان أحدهم لاحظ بقاءها الطويل فى الموقف ولأبلغ الشرطة بالأمر. ولكن لا يمكن أن تضيع آثار لين لمدة طويلة. فمن المحتم أن يفتقدها زملاؤها عندما تنتهى أجازتها وتقتضى عودتها إلى

العمل. كما سيفتقدها صاحب البيت عند استحقاق إيجار شقتها الشهرى. سيأتى من ينقذها من قبضة الغجرى عاجلاً أم آجلاً. لكن المقلق أن هذا الرجل يملك ثقة كبيرة بنفسه تجعلها تخاف من أن يتدبر الأمر بشكل محكم ينجو فيه من أى عقاب على جريمته النكراء.

أين هو الآن؟ غيابه يزيد من قلقها وتوترها. كم يمارس هذا الرجل لعبة الحرب النفسية ببراعة! آه لو يستطيع اولاف اقناعه بالافراج عنها! أمنية بددتها أصوات ثرثرة فى الخارج باللغة الغجرية شعرت لين من دون أن تفهم شيئاً أنها موجهة إليها. بدأ قلبها يخفق بقوة وأحست بأن جسمها مشلول وعقلها لا يفكر. صار كل كيانها منصباً على اللحظات الزاحفة ببطء، تحمل فى كل ثانية جبالاً من القلق والخوف. متى سيأتى راودلف؟ وماذا سيفعل عندها؟ كم كانت متهورة عندما ضربته بالسوط! لكن الطريقة الهادئة التى حياها بها فى الغابة وكأنه يراها للمرة الأولى أججت فى صدرها نار الغضب. كيف استطاع مواجهتها بكل هذا الهدوء بعد الحادثة الأولى قرب المخيم؟ استحق الضرب وأن تكن النتيجة وجودها هنا سجينة رجل شرير ينوى إيذائها. وبين أناس لم يسمعوا بالشفقة ووخز الضمير. من سينقذها من المصير الذى أعده ويعده لها خاطفها؟

جن جنونها بعد تحليلها للموقف. فحاولت فتح الباب، ثم أخذت تدق بيديها عليه وهى تعلم أن عملها لن يجدى نفعاً. لكن اليأس دفعها إلى هذه المحاولة الفاشلة. انهارت وسقطت على الأرض تجهش بالبكاء فى حين تعالت فى الخارج قهقهات الغجر المتلذذين بعذابها ومعاناتها.

أخذت لين تدور فى الغرفة، تقيسها طولاً وعرضاً. تجلس على

www.elromancia.com

كنبة، تنهض لترتمى على السرير... تسمرت السجينة فى مكانها إذ سمعت وقع خطوات قريبة واستقرت عيناها على مقبض الباب تنتظر فى هلع. أدير المفتاح فى القفل ودخل راودلف. رماها بنظرة عدم اكتراث وأقفل الباب وراءه.

- حسناً يا صغيرتى، وصلنا الآن إلى ختام المسرحية.

ابتسم هازئاً وتحسس الجرح فى خده. ارتجفت لين عندما رأت عمق الجرح الذى سببته للرجل لأنها لم تؤذ أحداً فى حياتها من قبل، لكن وقاحة الغجرى دفعتها إلى اللجوء إلى العنف معه.

أصبحت لهجة رادولف آمرة عندما تكلم من جديد:

- تعالى إلى هنا لتنفذى العقاب على وصفك لى بحثالة المجتمع.

وصاح فيها بعنف:

- تعالى إلى هنا!

زاد جرحه احمراراً بسبب الغضب ولم تجد لين بداً من الاذعان لمشيئته خوفاً من بطشه. أمسك بمعصمها وشدها إليه بقوة بالغة حتى كاد أن يحطم عظامها. لم تستسلم الفتاة له بل أخذت تقاوم بكل ما أوتيت من قوة فيما هو يقهقه عالياً ساخراً من مقاومتها. صرخت لين من الألم عندما أطبق بيده الفولاذية على شعرها وأرغمها على رفع وجهها إلى عينيه الغامضتين. وبوحشية فائقة أخذ رادولف يهزها بقوة فى غضب فيما الدموع تنهمر من عينيها سيولاً. حتى أنها عندما نظرت إليه رأت الصورة مشوشة كأنها أمام شبح لا أمام إنسان من لحم ودم. ومما زادها حيرة وتعجباً اخراجه منديلاً من جيبه ليمسح

دموعها بكل رقة وحنان!

- لقد أصبحت الآن أكثر وداعة، ولكن أقل إهانة ووحشية.

نظرت إلى الرجل بارتباك. وجه جامد كأنه محفور فى الصخر، نظرات باردة لا تنم عن أى احساس. ماذا يدور فى خلده؟ ماذا وراء هذه الملامح الهادئة؟

- أعندك شىء تقولينه قبل أن أنفذ انتقامى منك كاملاً؟ كنت أنوى أن أستعمل السلاح نفسه.

أشار رادولف إلى السوط المرمى على الأرض وتابع:

- لكن آثار الجروح تفسد جمال وجهك. لذلك طرحت فكرة جلدك جانباً واستعضت عنها بطريقة انتقامية أخرى ممتعة.

رأت لين فى ابتسامته سخرية لا متناهية وفى عينيه علامة الانتصار. وفى الوقت نفسه أدركت أنها أخطأت عندما أهانته وأنه لن يغفر لها ذلك. لقد وصفت الغجر بحثالة المجتمع ورعاع القوم ورادولف مصمم على جعلها تدفع ثمن ذلك غالياً.

كرر الغجرى سؤاله:

- أعندك شىء تقولينه قبل أن أنفذ انتقامى كاملاً؟

وجدت الفتاة صعوبة فى نطق الكلمات:

- أتريدنى أن أطلب منك الرحمة؟

- مع الأسف الشديد لن يجدى استجداؤك نفعاً لأنى لست ذلك الشخص المتسامح.

www.elromancia.com

ابتعدت لين إلى الوراء ونظرت من النافذة فرأت اولاف يبتعد على الحصان ومعه يتلاشى أملها فى المساعدة... قالت لمختطفها بصوت متهدج تخنقه الدموع:

ـ لن تنجو بفعلتك. عندما أخرج من هنا سأذهب فوراً إلى الشرطة.

علق رادولف وهو ينظر إلى وجهه المجروح فى المرآة:

ـ الحديث عن الخروج سابق لأوانه يا عزيزتى فأنت جميلة جداً ولن أتركك تفلتين.

تبسم هازئاً وأضاف:

ـ ربما لن تخرجى من هنا أبداً.

لم تتمكن لين من استيعاب هذه الفكرة وتصورت نفسها سجينة هذه العربة بقية حياتها...

ـ ماذا... ماذا تنوى أن تفعل لى؟

رفع حاجبيه وأجاب:

ـ لا تتظاهرى بالبراءة وتدعى إنك لا تعلمين ماذا سأفعل بك!

علت الحمرة وجه الفتاة خجلاً فأوضحت:

ـ أعنى ماذا ستفعل بى بعد أن تنتقم منى كما تريد؟

توقف ووضعت يدها على قلبها الخافق بشدة ثم أضافت بهلع:

ـ هل تنوى أن تقتلنى؟

هز رادولف رأسه ضاحكاً:

ـ أقتلك؟ خسارة أن يموت هذا الجمال. لا، لن أقتلك لأنى لا أريدك جثة هامدة بل امرأة تضج بالحياة.

أنساها الغضب خوفاً فانفجرت:

ـ اسمع يا حضرة الغجرى. قد أكون تحت رحمتك ولكن لا تتوقع منى أى سكوت لأنك لا تستطيع امتلاك روحى!

ـ سنرى يا عزيزتى، فلندع ذلك للوقت.

أخذ يداعب شعرهافانتفضت وانشبت أظافرها فى وجهه مسببة له نزفاً جديداً من الجرح.

ولكنها ما لبثت أن ندمت على ذلك لأن الغضب أعماه فكاد يخنقها:

ـ سأعلمك الآن كيف يعامل رعاع القوم نساءه أيتها السيدة الانجليزية المتحضرة.

توسلت إليه وهى تحاول لملمة قميصها الممزق:

ـ أرجوك ارحمنى! أعتذر.

أكمل رادولف على ما تبقى من قميصها ووقف يحدق فيها بعينى شقى شرير.

ـ الاعتذار لا ينفع يا حلوتى. أما الدرس الذى سألقنك إياه الآن فنافع جداً!

حملها بين يديه كدمية. حاولت لين أن توقظ فيه الرأفة فلم تجد إلا الرغبة فى الانتقام.

www.elromancia.com

رادولف المنتصر فى هذه المعركة، المنتقم الساخط الذى سيغلب على أية محاولة تبديها للمقاومة. أخذ يضحك وهو ينظر إلى البقية الباقية من ملابسها، فحاولت ستر نفسها بغطاء السرير. غشاها الخزى والعار وتمنت لو أن يد الموت تمتد لتنقذها من مرارة هذه اللحظات المشينة.

- ما رأيك يا حلوتى بهذا التعذيب البطىء! أعتقد أنك لم تتوقعى ذلك أبداً عندما ضربتنى بالسوط على وجهى، أليس كذلك؟

- أكرهك، أكرهك... سأقتلك يوماً.

- ستكرهيننى أكثر يا حلوتى. ستكرهين الغجرى المتشرد وسوف تستجدين منه الرحمة!

استشفت لين من صوته مرارة إلى جانب الغضب. كأن الرجل يغار كثيراً على سمعة بنى قومه ولا يتحمل أية اهانة توجه إليهم.

- آن الأوان يا حلوتى ليبدأ الانتقام الممتع.

أغمضت لين عينيها وبكت بمرارة مستسلمة لقدرها المحتوم.

٣. بصيص الأمل

تزايد الضجيج فى الخارج وطرق أحدهم الباب فأفاقت لين من ذهولها ولاح لها أمل جديد.

وقبل أن يفتح الباب سمع الرجال فى الخارج يرددون أغنية غجرية فانفجر ضاحكاً. تقدمت امرأتان من مدخل العربة فغرقت لين فى أغطية السرير محاولة اخفاء نفسها والخجل يغمرها. تبادل رادولف بعض الكلمات مع المرأتين ورمى أحد الملتفين إلى لين فستاناً زاهياً. فوقف رادولف يفكر وينظر إلى الفستان بينما كانت الفتاة تحاول جاهدة فهم ما يجرى. ماذا يخطط لها هؤلاء القوم؟

ألا يكفيها شر خاطفها وحده لتتحمل الآن شرور الآخرين؟

أخيراً نطق رادولف:

- ولم لا؟

سألته الفتاة والخوف يعصر قلبها ويمحو بقية الأمل الذى لمحته بعد أن سمعت الطرق على الباب:

- ما الأمر؟

www.elromancia.com

وأردفت بنبرة شبه هستيرية:

- قل لى ما الأمر!

- القوم يطالبونى بالزواج. أليس مضحكاً أن فرداً من حثالة المجتمع يتزوج فتاة من نخبة المجتمع! وجدت أنهم على حق فقد آن الأوان لأتخذ لنفسى امرأة.

ثم أضاف بعد أن نظر إلى الفستان:

- احضروا لك فستان العرس، ارتديه!

امتقع وجه لين وصاحت فى غضب باكية:

- لا! لا يمكن لأحد أن يجبرنى على الزواج.

أمسكت بالفستان ورمته فى وجه الواقفين على الباب ثم صرخت:

- ارحلوا عنى وخذوا هذه القذارة معكم!

انحنى رادولف ليلتقط الفستان وباشارة واحدة من يده أبعد قومه الملتفين ونوايا الشر فى أعينهم بعد أن أهانتهم العروس العنيدة. ثم أغلق الباب بعنف واقترب من السرير مهدداً متوعداً.

- أرتدى الفستان.

مررت لين لسانها على شفتيها الجافتين وشرعت فى محاولة تضليل للتهرب من شرك الزواج.

- ولو أننى كنت متزوجة؟

نظر إلى يدها اليسرى ليرى ما إذا كان فى اصبعها خاتم زواج.

- لا أعتقد أنك متزوجة. ارتدى الفستان إلا إذا كنت تريدين أن أفعل ذلك بنفسى.

أخذ عقل الفتاة يعمل بسرعة فوجدت أن فى الاذعان لمشيئته والخروج من هذه الغرفة فرصة للحصول على مساعدة أحد والخلاص من قبضة خاطفها. فقالت له وعلى جبينها علامة الرضوخ:

- حسناً، لا خيار لى إلا بقبول الزواج. وعلى أى حال يظل الزواج أفضل من...

أكمل الغجرى الجملة ضاحكاً:

- أفضل انتقامى البشع؟

- هلا تفضلت بالخروج لأغير ملابسى؟

- ولماذا تخجلين من زوجك؟

- أنت لم تصبح زوجى.

كان عقلها مايزال يفتش عن وسيلة للخلاص. كم هى المسافة بين المخيم والطريق العام؟

وهل يسمعها أحد إذا صرخت مستغيثة؟

نفد صبر رادولف من الانتظار فقال:

- لقد نفذ صبرى فلا داع للخجل! انهضى من السرير وارتدى ثوب العرس.

نهض الرجل من كرسيه غاضباً فقالت له باذعان وخوف:

- أرجوك عد إلى كرسيك فسأنفذ مشيئتك.

www.elromancia.com

جلس الغجرى فى حين أنها وجدت صعوبة بالغة فى التحرك أمام هذا الرجل الخبيث، الوقح، الذى سبب لها إذلالاً ما بعده إذلال. وعلى الرغم من صعوبة الموقف لمحت الفتاة فى عينى خاطفها بريقاً مختلفاً عن الشر والسوء، رأت ما يشبه الاعجاب!

كان الفستان طويلاً، ولحسن الحظ، نظيفاً. وقفت لين أمام رادولف الذى أمسك بيدها وقال:

- ما رأيك. أليس الفستان جميلاً؟

ثم انتبه إلى أمر تافه بالنسبة إليه فسألها:

- على فكرة ما اسمك؟

وجدت لين فى غرابة الموقف ما يضحك. العريس يسأل عن اسم عروسه قبل دقائق من الزواج!

- اسمى... لين.

- اسم جميل. لين ماذا؟

- لين سلدون.

- تعرفين اسمى على ما أعتقد.

- لست بحاجة إلى أن أعرفه لأنى لن أناديك على الاطلاق.

- أول أمر على المرأة الغجرية أن تعلمه هو الطاعة العمياء لزوجها ستعتادين على ذلك تدريجاً، أما الآن فهيا لأن القوم بانتظارنا.

فى الخارج، نظرت لين إلى الطريق فتنفست الصعداء لأنه ليس بعيداً جداً عن المخيم. لربما تمكنت من الافلات أو لفت انتباه أحد يمر

بسيارته فيأتى لانقاذها. لكن رادولف وقومه كانوا يعلمون نواياها، لذلك وجدتهم يحيطون بها بشكل لا يدع مجالاً لأية محاولة للفرار.

بدأ الرجل المختص باتمام المراسم الشكلية الخاصة بالزواج عند الغجر، والتى لم تفهم منها لين شيئاً. وقفت تراقب بصمت المشاهد الغريبة التى تمر أمامها كأنها مجرد متفرج لا علاقة له بما يجرى. هل زواجها هذا شرعى؟ ولكن أمر الزواج لم يعد مهماً إزاء تصميمها النهائى على الفرار مهما كانت الصعاب ومهما كلفها ذلك من تضحيات. زادها تصميمها شجاعة وإيماناً بالخلاص.

صحت فجأة من شرودها على صوت زوجها الغجرى رادولف:

- تعالى يا زوجتى، سيصطحبنا المحتفلون الآن إلى عشنا الزوجى.

أخذ الرجل يضحك بينما كانت لين تبكى. وضعت يديها خلف ظهرها عندما حاول زوجها وضع يدها فى يده مما أثار ضحك الجميع. لكن الغريب فى الأمر أن خوفها تحول إلى غضب بارد وتصميم على الانتقام.

أمسك رادولف بيدها وصفعها عليها بنعومة كأنه يمازحها. ثم رافقهما الجميع إلى العربة وكان البعض يرقصون ويغنون احتفالاً «بالمناسبة السعيدة» فقد تخلى الزعيم أخيراً عن العزوبية.

أفاقت لين على أشعة الشمس المتسللة من بين الستائر تداعب عينيها. تدافعت الصور فى مخيلتها، صور الاهانة والاذلال. تمنت لو أنها لم تقاوم بشراسة وتنعت زوجها بالغجرى القذر. فلربما كان عاملها بشكل أقل شراسة مما فعل. لقد سببت بتصرفها الأخرق

www.elromancia.com

غضبه فكان عليها بالتالى تحمل النتائج.

كان رادولف مصمماً على إذلالها، فلماذا حاولت إيقافه وهى تعلم أن ما قامت به عقيم لا يفيد مع هذا الشخص؟ لكن عدم استسلامها أعطاها قدراً من الثقة بالنفس سوف يجعلها تصمد أمام ما ينتظرها من صعوبات ومشاق.

جلست تنظر إلى الرجل النائم إلى جانبها. عيناه المغمضتان كعينى طفل برىء ينام فى هناء بين أحضان أمه. يا لتناقض وحشيته مع هذه القسمات الهادئة! رغبت لين بصفعه لكونه يتمكن من النوم هكذا بعد كل ما سبب لها البارحة من إذلال. تحرك الرجل أخيراً وفتح عينيه يحدق حوله وكأنه لا يعرف أين هو ومع من.

- صباح الخير يا زوجتى العزيزة. أرجو أن تكونى قد نمت جيداً.

لم تنتظر لين طويلاً حتى بادرته بالسؤال:

- قل لى ماذا سنفعل الآن. هل ستبقينى هنا لأعيش مع هؤلاء القوم؟

- وأين تريدين العيش؟ الزوجات يسكن عادة مع أزواجهن.

- لكننى لن أجد شيئاً أفعله هنا.

- فى الوقت الحاضر ستهتمين بزوجك.

- ماذا تعنى بالوقت الحاضر؟

- أعنى حتى نبدأ بانجاب الأولاد. والفجر ينجبونهم بكثرة كما لاحظت.

امتقع وجه لين وهى تحلل الفكرة الجديدة التى إن تحققت ستتعقد أمور حياتها إلى الأبد.

- أتمنى أن لا أنجب أى ولد منك!

تكلم رادولف بنبرة فاجأت زوجته لما غلفها من ألم وحسرة:

- ستنجبين أولاداً لأنى ككل الرجال أرغب بوجود وريث لى.

- وريث؟ وماذا تملك لتعطى وريثك هذه العربة الحقيرة؟

- دعينى أقدم لك نصيحة غالية يا لين. لا تغضبينى بعد الآن وإلا ندمت على ذلك حيث لا ينفع الندم. وأحذرك أنك لم ترى منى الاسوأ بعد!

تمتمت الزوجة الباسة:

- كان الله فى عونى...

رمقها الفجرى بنظرة ثاقبة وقال:

- تماماً. وخلافاً لما تعتقدين، أنا أمتلك الكثير لأقدمه لوريثى.

- طبعاً فأنت تملك هذه العربة القذرة، وسمعتك السيئة...

لم تتمكن لين من المتابعة إذ أخرسها الألم عندما أطبق رادولف بقبضته الحديدية على ذراعها.

- لا تعتبرى مسألة فقرى مسلماً بها ولا تحاولى تخمين ممتلكاتى.

زاد من شدة قبضته وأضاف:

- يبدو أن على تأديبك يا امرأة...

تحررت لين من قبضته وحاولت النهوض من السرير. لكن راودلف كان أسرع منها فشدها إليه بعنف واستسلمت بعد مقاومة يائسة لاصراره...

www.elromancia.com

بعد حوالى الساعة جلسا إلى الطاولة لتناول طعام الفطور. لم يكن رادولف مهتماً بالأكل بقدر ما صب اهتمامه على مراقبة زوجته متلذذاً بمعاناتها.

سألها وهو يتحسس الجرح فى خده.

ـ هل ندمت على فعلتك هذه؟

ـ استحقيت الضرب وأنت تعلم ذلك.

ـ استحقيته؟

بدا رادولف مذهولاً فتساءلت لين ما إذا كان قد نسى أنه هاجمها عندما تعطلت سيارتها قرب المخيم.

ـ أنسيت عندما حاول الغجرى الحقير...

لم يدعها رادولف تكمل إذ قلب المائدة وهب من كرسيه يعميه الغضب. فتراجعت لين خائفة حتى التصقت بحائط العربة وهى تلوم لسانها الطويل الذى أثار أعصابه.

تقدم منها الرجل مزمجراً:

ـ ستعتذرين على هذه الإهانة! وستعتذرين بكل تذلل وضعة.

حدقت لين مشدوهة فى هذا الوجه الشرير وهى لا تكاد تصدق أن كل هذا الحقد يمكن أن يتجمع فى إنسان واحد. لما وجدها ساكنة جذبها الغجرى إليه وأخذ يهزها بقوة كدمية صغيرة حتى كادت تصاب بالاغماء. أخيراً، قال وهو يعض على أسنانه:

ـ أنا أنتظر الاعتذار!

لم تدع لين الفرصة تفلت من يدها فقالت فى هلع وذل:

ـ أعتذر على ما فعلته...

توقف فجأة تخنق صوتها الدموع المنهمرة من عينيها بغزارة. الرجل كان يستحق الضرب وإلا لما فعلت لين ذلك، وعلى الرغم من صواب موقفها فقد أجبرها على الاعتذار صاغرة على أشياء قالتها عن اقتناع تام.

رفعت عينيها إلى وجهه القاتم، إلى الملامح المتعالية التى تكسبه تفوقاً ومهابة. من يراه يظنه أحد النبلاء، ولا يمكن أن يشك بأنه غجرى شرير. غجرى يبدو أرستقراطى متعجرف... أمر محير فعلاً.

ـ أظهرت تعقلاً فى الاعتذار يا حلوتى، لأن أية كلمة مهينة كانت ستكلفك شهر نقاهة!

حرر كتفيها ونظر إلى الطاولة المقلوبة وإلى الأطعمة والصحون المتناثرة على الأرض. اقشعر بدن لين تقززاً من القذارة الطاغية فى هذه العربة. أمرها رادولف بالتقاط كل ما تناثر على الأرض فلم تجد بداً من لاذعان له فيما هو جالس على الأريكة يراقب ما تفعل.

بعد قليل أبلغها رادولف أنه سيغيب طوال النهار.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ هذا ليس من شأنك. كما أحب أن أذكرك بألا تحاولى الفرار لأن العربة ستكون مراقبة من جميع الجهات.

وناظراً حوله:

ـ أريد أن أجد كل شىء نظيفاً ومرتباً عندما أعود. إلا إذا أحببت أن أذيقك طعم العنف!

www.elromancia.com

كانت لين تعلم أنه لا يمزح وأنه على استعداد لضربها فلم تجب على تهديداته.

لم يكن عملها بسيطاً البتة فالعربة قذرة فعلاً وتحتاج إلى أيام لتصبح نظيفة. بدأت أولاً بتنظيف الأثاث بقطعة قماش وجدتها فى الدولاب القذر. المرحلة الثانية كانت تنظيف أرض العربة والأوساخ المتجمعة، منذ سنوات على ما يبدو، شكلت فى بعض المواضع تلالاً صغيرة اضطربت لين لاستعمال السكين لنزعها.

ألا يكفيها أنها تعيش مع زوج وضيع ليزيد الطين بلة وجودها فى هذا المكان القذر؟ حتى رادولف أظهر بعض القرف من القذارة وكأنه ليس معتاداً على هذه المشاهد!

جلست لين على الأريكة تستريح وتفكر. فزوجها بدا غريباً فى بعض أقواله وتصرفاته. قبل كل شىء فى صوته نبرة رقيقة لا يملكها إلا دمثو الأخلاق والمهذبون. لا يصبح قاسياً إلا فى ساعات الغضب و «الغجرية»... حاولت ولم تستطع تذكر نبرته فى لقائهما الأول. فهو لم يسألها إلا عن السيارة وبعد ذلك انصرف إلى الحركة لا إلى الكلام... ثم هناك الحصان الأصيل الذى كان بمتطيه عند لقائهما الثانى. من أين يمكن لغجرى فقير الحصول على مثل هذا الحصان الرائع؟ والأكثر غرابة تمكنه من الوصول إلى هذه المنطقة بسرعة بينما أمضت لين ساعات لبلوغها بالسيارة! هذا يعنى أنه استعمل وسيلة أسرع من الحصان بكثير.

أطلقت زفرة الفشل وقررت أخيراً فتح النافذة. وما إن فعلت حتى ظهر أمامها «حارس» شاب لا يتجاوز العشرين من عمره.

قالت له على أمل أن يكون يفهم الانجليزية:

- أريد نفض هذه السجادات.

- سأفعل ذلك بنفسى.

ابتسم الشاب بأدب وهو يتناول منها السجادات فظهرت أسنان لم تر أنصع بياضاً منها من قبل.

- شكراً لك.

لم تنتبه المرأة الشابة لنظرات الغجرى الهائمة بوجهها الجميل. ولم يخطر لها بالطبع أنه لم يكف عن التفكير بها منذ أن أحضرها رادولف إلى المخيم.

سألته عندما أعاد السجادة الأولى:

- هل كلفك رادولف بمراقبة العربة خلال غيابه؟

أومأ بالايجاب. ثم تمتم بصوت هادئ لطيف:

- آسف لقيامى بهذه المهمة.

وجدت لين فى موقفه فرصة ذهبية، فاختارت كلماتها بدقة:

- لا عليك فأنت مضطر لاطاعة أوامره، أليس كذلك؟

- الجميع يطيعون أوامر رادولف.

- هل هو ملك الغجر؟

- لا تطرحى على أسئلة لا يمكننى الاجابة عليها يا سيدتى.

فيما كان الشاب ينهى نفض السجادتين الباقيتين، رأت لين عينين

تراقبان المشهد من نافذة عربة أخرى، حارس آخر. ناولها الشاب السجادتين وقال:

- على الذهاب الآن، أرجوك اغلقى النافذة.

- لا تذهب قبل أن أعرف اسمك على الأقل.

نظر الشاب حوله وتكلم بسرعة:

- ادعى كونيل. علىّ الذهاب الآن، وإلا عرف رادولف بأنى تحدثت إليك.

وجدت لين فى هذا الشاب نقطة ضعف إذا عرفت استغلالها قد تساعدها على الهرب.

بعد قليل اقتربت من النافذة لترى إذا كان أحد يراقبها.

وعندما لم تجد أحداً فتحتها بهدوء فأطل كونيل.

- هلا أحضرت لى بعض الماء يا كونيل؟

وضعت المرأة فى صوتها كل ما لديها من نعومة ورقة عرفت مفعولهما عندما أعاد الشاب الدلو مليئاً بالماء. وناولها إياه بيدين مرتعشتين.

- شكراً جزيلاً.

وأضافت بعد أن تأكدت من عدم وجود متطفلين:

- ماذا يحل بك إذا تمكنت من الفرار؟

- سأقع فى مشكلة كبيرة إن حدث ذلك.

- مع زوجى؟

- نعم فهو قد كلفنى بحراسة العربة.

- أيدفع لك شيئاً مقابل ذلك؟

احمر وجه الشاب حرجاً من أسئلتها وقال بخجل:

- فى الحقيقة أنا بحاجة ماسة إلى المال. أتريدين المزيد من الماء؟

- نعم، سأفرغ الدلو أولاً.

ناولته لين الدلو وما إن غاب حتى أخذت تفتش فى خزانة العربة عن قلم فلم تجد شيئاً.

سألته وهى تناوله الدلو:

- أيمكنك أن تحضر لى قلماً لأكتب رسالة صغيرة؟

- لا...

لم تدعه لين يكمل الكلام فتوسلت:

- أنا بحاجة إلى المساعدة يا كونيل! أنت تعلم أنى سجينة هنا وأريد الفرار بأى ثمن!

هز الشاب رأسه وابتعد بسرعة بعد أن أغلق النافذة.

ظلت لين قرب النافذة تراقب كونيل الجالس على مدخل احدى العربات تحاول أن تلفت انتباهه. لكنه تحاشى النظر إليها فقررت أخيراً الانسحاب كى لا يلاحظها أحد ويخبر زوجها بالأمر.

جلست تفكر فى طريقة كفيلة بكسب الشاب إلى جانبها. قد يكون المال وسيلة صالحة لذلك. لكنها تركت حقيبة اليد التى تحوى مبلغاً محترماً فى صندوق السيارة. هل يقبل كونيل بمجرد وعد باعطائه المبلغ بعد هروبها؟ ولكن كيف يصدقها وكيف تصل إليه لتعطيه المال؟

www.elromancia.com

خطة محكوم عليها بالفشل.

تنهدت لين وقالت لنفسها:

- لا فائدة من كل الخطط. سيسجننى هذا الشرير هنا حتى يمل منى ويشعر بحاجة إلى التغيير.

كانت واثقة من أن هذا الملل لن يحل قريباً. فعليها أن تتأقلم نفسياً لتتحمل الأيام الطويلة الآتية. رادولف معجب بها كثيراً وهى لا تنكر أنه وسيم جداً برغم قسوته.

أين ذهب؟ أين يغيب كل هذه الساعات؟ هى لا تتصور زوجها، كغيره من الفجر، يتنقل من باب إلى باب عارضاً إصلاح مقلاة أو غلاية، فطبعه المتغطرس يمنع عليه ذلك.

مر الوقت ببطء مزعج ولين جالسة فى العربة لا تجد شيئاً تفعله بعد أن انتهت من التنظيف وحضرت العشاء لزوجها. أخذت تقيس العربة عرضاً وطولاً كأنها قطة سجينة فى قفص. إلى متى يمكنها تحمل هذه المعاناة؟ أعصابها المحطمة لن تساعدها على اجتياز الامتحان الصعب. يا ليتها لم تستعمل السوط فى تلك اللحظة المشؤومة! بلى، حسناً فعلت لأنه يستحق الضرب، ولأن أى فتاة غيرها كانت فعلت الشىء نفسه مع شخص حاول الاعتداء عليها...

لم تعد لين تحتمل الوحدة حتى أنها شعرت بالارتياح عندما عاد رادولف فى المساء منهوك القوى، لكن الملاحظة التى أبداها فور وصوله أعادت توترها وغضبها.

- يا للنظافة! يبدو أنك قررت أن تصبحى زوجة مطيعة. قرار حكيم.

نظر رادولف إلى وجهها ولاحظ أن عينيها باكيتان ثم قال:

- لا تحزنى على حالتك لأننى قد أجعلها أسوأ.

صاحت فيه غير آبهة بالعواقب:

- أسوأ؟ وهل هناك أسوأ من هذا؟

نظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة قبل أن يجيب:

- بامكانى مثلاً أن أضربك يومياً.

امتقع وجهها ثم قالت بصوت شبه هستيرى:

- أكرهك. لابد أن أنتقم منك يوماً أيها الـ...

قاطعها الفجرى بضحكته فأكملت:

- سأقتلك إذا استطعت!

- أنا واثق أنك ستسرين كثيراً لو رأيتنى ممدداً على الأرض أسبح فى بحر من الدماء.

ثم اردف:

- اجلسى وأخبرينى عن ظروف حياتك، عن وظيفتك مثلاً.

- كنت أعمل فى شركة، وعلى فكرة سيبدأ زملائى بالتحرى عنى قريباً.

- سأعالج هذا الأمر يا عزيزتى. أما الآن فاخبرينى عن نفسك.

نظرت إليه باستغراب فلماذا يهتم لمعرفة خصوصياتها؟ على أى حال هدأ غضبها وشعرت بالسرور لوجود أحد قربها تتبادل معه الحديث، وأن يكن هذا «الأحد» شخصاً تكرهه حتى الموت.

www.elromancia.com

- أسكن فى شقة صغيرة بلندن.

استفسر الغجرى وهو يتفحص أظافره الأنيقة التى يحرص جداً على نظافتها:

- تسكنين وحدك؟

- نعم أسكن وحدى.

- أنت لست مخطوبة إلى أحد على ما أعتقد وإلا لما جئت إلى هذه البلاد وحدك.

كانت فعلاً حمقاء عندما أطلعته على هذه الأشياء فى الغابة. لكن رعبها كان شديداً إلى درجة أفقدتها السيطرة على لسانها.

تابع رادولف استجوابه:

- ماذا كنت تعملين فى لشركة؟

أطلعته لين على التفاصيل وعيناها تراقبان ثيابه. لقد أبدلها بثياب جديدة، كما أن شعره يبدو مغسولاً. أين أمضى النهار ومن أين أتى بالثياب؟ لربما كان يملك بيتاً فى الغابة حيث التقته أو فى أى مكان آخر.

- سنحضر سيارتك إلى هنا يا عزيزتى فهى قد تفيدنا.

- أيها اللص! لا أشك فى أنك سرقت الحصان أيضاً!

- حذار من اللعب بالنار! الزوجة الغجرية لا تكلم زوجها بهذه الطريقة لأنها تعتبره دائماً السيد المطاع.

- أما أنا أيها الغجرى الساقط فاعتبرك وقومك أناساً منحطين!

هب رادولف من مقعده كلمح البصر وأمسك بشعرها مسبباً لها ألماً فظيعاً. لقد أوقعها لسانها فى ورطة جديدة كانت بغنى عنها. ومن حسن الحظ أن طلبه اقتصر على الاعتذار فكان له ما أراد. تمكنت بذلك من التخلص من الضرب.

فلم تجد سبيلاً إلى حبس دموعها وإيقاف ارتعاشها.

أخيراً ابتعد عنها الغجرى ووقف فى وسط العربة صامتاً. ساد الجو سكوت مطبق أنهاه رادولف قبل أن يقول بصوت رقيق:

- لين، لماذا تدفعيننى إلى معاملتك بهذه الطريقة؟

ذهلت المرأة لهذا التبدل العجيب فأخذت تحدق فى وجهه دون أن تفهم مراده. بعد ذلك عاد الرجل إلى طبيعته نادماً على ما بدر منه من رقة فأمرها:

- حضرى طعام العشاء!

جلسا يتناولان العشاء بصمت قبل أن يفجر رادولف قنبلته الجديدة.

- ستكتبين إلى الشركة لتبلغى زملاءك أنك قررت الزواج...

قاطعته لين قائلة:

- أكتب! هل تظن أنه بامكانك إجبارى على الكتابة هكذا بكل بساطة؟

تمالك رادولف نفسه وحذرها:

- حاولى ألا تقاطعينى يا امرأة. ستكتبين الرسالة بدون نقاش.

www.elromancia.com

تناول الشوكة وتأكد من نظافتها قبل أن يستعملها ثم أضاف:

- كما ستوجهين أيضاً رسائل إلى جميع أصدقائك لتعلميهم بالأمر.

اسكتها باشارة من يده إذ حاولت التعليق.

- لا تحاولى الاعتراض، ستنفذين أوامرى بحذافيرها.

- ليس بوسعك أن تجبرنى على ذلك!

أدركت لين أن فى صوتها ضعفاً، لأنها كانت تعلم أن الطاعة هى السبيل الوحيد لتفادى العنف. وأن رادولف لا يقبل بأقل من الرضوخ والاستسلام. والدليل على ذلك أنه ناولها بعض الأوراق وقلماً فجلست الزوجة تكتب كما أمرها زوجها والغصة فى حلقها تكاد تخنقها.

سيستغرب زملاؤها وأصدقاؤها أمر الزواج لكنهم لن يجدوا سبباً لعدم تصديقه وسيكفون عن البحث عنها. بعد أن انتهت خرج رادولف ليبعث بالرسائل فى البريد.

بعد خروجه سمعت طرقاً خفيفاً على النافذة. نظرت لترى من الطارق ففوجئت لما رأت وجه كونيل وركضت لتفتح له.

قال الشاب بصوت لاهث:

- أحضرت لك القلم يا سيدتى.

- لا أعرف كيف أشكرك! عد عندما تستطيع لأسلمك الرسالة.

أقفلت لين النافذة بسرعة وخبأت القلم وهى تأمل أن يكون كونيل جاداً مخلصاً، وأخذت تصلى لئلا يكتشف زوجها اللعبة.

غاب رادولف ساعتين قبل أن يعود حاملاً حقيبتيها بعد أن جلب

السيارة من الموقف كما وعد.

- افتحى الحقيبة الكبيرة.

- لماذا؟

- لابد أن لديك ملابس جميلة.

رمقها بنظرته الخبيثة وأضاف باللهجة الحادة التى تكرهها لين:

- افتحى الحقيبة!

أطاعت مرغمة وشرع رادولف فى غربلة ملابسها إلى أن وقع اختياره على فستان قطنى أحمر.

- هذا ما سترتدينه الليلة.

ناولها الفستان لكنها رمته فى وجهه فقال ساخراً:

- سأعتبر عملك دعوة لألبسك إياه بنفسى.

ضحك الغجرى طويلاً وهو يتفرج على زوجته تحمر خجلاً. لكن لين لم تجد هذه المرة فى نظراته ما يخيف أو ينفر، بل تنامى فى داخلها شعور مبهم تجاه هذا الرجل القاسى المتلذذ بعذابها.

www.elromancia.com

٤ . النفق المظلم

فى اليوم التالى خرج رادولف باكراً ليجلب لزوجته بعض الماء كى تغسل شعرها . عندما رجع قال لها بنبرته المتعالية:

ـ هيا اغسلى شعرك فالماء وفير.

نهرته ونفسها تجيش بالغضب:

ـ لا تكلمنى بهذه الطريقة وكأنى عبدة!

ـ وجدت الكلمة الصحيحة . أنت عبدتى.

ـ لا تعتبر نفسك سيدى! من تكون على أى حال؟ ربما كنت ملك الغجر لتعامل الناس بطريقتك هذه؟

أجاب ضاحكاً:

ـ حسناً أنا ملك الغجر!

يا له من مخلوق سادى لا يترك فرصة للهزء منها.

ـ كلامك يعنى بوضوح أنى مخطئة.

ـ ما الذى يجعلك تظنين أنى ملك الغجر؟

ترددت لين فى الاجابة لأنها لا تريد الاعتراف له بأنه يملك سطوة وجلالاً .

ـ أنت تختلف إلى حد ما عن باقى قومك.

ـ مختلف؟

ـ نعم مختلف.

ـ كيف يمكنك أن تقارنى بينى وبين قومى وأنت لم تتعرفى إلى أحد منهم جيداً؟

ـ راقبتهم من النافذة وسمعتهم يتكلمون.

ـ أتعتبرين أن هذا كافياً؟

ـ أشعر كأنى أمضيت سنتين هنا لا يومين!

ـ ألن تسخنى الماء لتغسلى شعرك؟

ـ لن أستطيع غسل شعرى فى هذه الآنية الصغيرة.

ـ ماذا تقترحين إذن؟

ـ هل بامكانك أن تحضر وعاء أكبر؟

ـ سأبحث عن واحد.

لا تعلم بين ما الذى دفعها إلى طرح هذا السؤال المفاجىء على زوجها:

ـ هل صحيح أن الغجر يهددون الناس بحلول اللعنة عليهم إذا لم يعطوهم ما يريدون؟

لم ينزعج رادولف للسؤال خلافاً لتوقعها.

www.elromancia.com

- أتؤمنين حقاً بذلك؟

- لا، لكنى أعرف كثيرين يخافون من لعنة الفجر.

وفيما هى تبحث فى حقيبتها عن الشامبو أوقعت كتيباً على الأرض. التقط رادولف الكتيب وفى عينيه اهتمام كبير .

- من أين حصلت على هذا الكتيب؟

- من قصر السيد دوغى الذى زرته يوم التقيتك.

- ومتى قمت بهذه الزيارة الممتعة؟

كان سؤال الغجرى ملحاً إلى درجة كبيرة.

- يوم السبت الماضى.

قادتها ذكرى الحدائق إلى التفكير بالهرب وتذكرت أن سبيلها الوحيد إلى الخلاص هو المال الموجودفى حقيبتها والذى ستغرى به كونيل ليساعدها على الافلات من قبضة خاطفها.

- السبت الماضى...

- قبل أن تقوم باختطافى بيوم واحد.

هز رأسه وهو يفكر عميقاً ثم سألها:

- ما رأيك بحدائق القصر؟

- لماذا تسألنى؟ هل تعرف الحدائق لتطلب رأيى فيها؟

بدا الغجرى مستمتعاً بهذا الحديث فأجاب:

- نعم، زرتها عدة مرات.

مرة أخرى زل لسانها إذ قالت مستغربة:

- كيف سمح لك الحراس بالدخول؟

وضعت لين يدها على فمها لتمنع خروج المزيد من الكلمات الجارحة. ورأت عينى الغجرى تلمعان سخطاً.

اقترب منها الرجل مهدداً:

- أوضحى سؤالك. أتقصدين أن مستوى الوضيع لا يليق بمقام زوار تلك الحدائق؟

حاولت المرأة أن تخرج من المأزق فقالت:

- آسفة، اعتقدت أن...

- أن ماذا؟

مدت لين ذراعيها متوسلة ومحاولة إيقاف غضبه.

- أنا حقاً آسفة. أرجوك أن تنسى الموضوع.

انتظرت لين رداً عنيفاً من زوجها لكنه لم ينبس ببنت شفة. متى ينفجر ويعطى سجينته نصيبها من العقاب الذى تستحقه على هذه الاهانة؟ لكن كل ما فعله الرجل أنه قذف الكتيب فى الحقيبة وخرج من العربة.

راقبت لين مشيته المتوازنة وجسمه الرشيق. لماذا لم تلاحظ فيه هذه الأشياء عندما قابلته المرة الأولى؟ لاشك أن الخطر الذى كان محدقاً بها آنذاك لم يسمح بذلك. فجل ما صبت إليه كان الافلات من قبضته، الأمر الذى تحقق بفضل الفتاة الغجرية. من هى هذه الفتاة التى أطاعها رادولف فوراً؟ لابد أن لها مكانة كبيرة فى حياته كى ينفذ

www.elromancia.com

أوامرها وهو الرجل الصلب العنيد لو لم تر المشهد بأم عينيها لما صدقت أن رادولف يطيع كالأرنب امرأة غجرية. ربما كانت الغجرية تعرف سراً لو فضحته لأوقعته فى ورطة كبيرة. لكن هذه الفكرة مستبعدة لأنها لو صحت لما تجرأ رادولف على خذل فتاته والزواج من غيرها. أرادت لين أن تعرف حقيقة العلاقة بين زوجها والغجرية. لكنها تخاف من إثارة ذكرى اللقاء الأول كى لا يغضب رادولف وتسبب لنفسها ما لا تحمد عقباه. فلو أن الرجل يرغب فى التحدث عن اللقاء لكان فعل ذلك بنفسه. لابد أنه يتناساه لأنه يخجل فعلاً من فعلته الدنيئة. عاد رادولف حاملاً وعاء كبيراً.

- هل يكفيك هذا؟

- بالطبع ولكن من المستغرب أن تزعج نفسك من أجلى.

- قلت لك يا لين أنك لم ترى الجانب الأسوأ منى بعد. وأقول الآن أنك لم ترى الجانب الحسن كذلك.

أدركت لين أنه يجب عليها اكتشاف حقيقة هذا الرجل والتعرف إلى شخصيته الغامضة أكثر. مع ذلك هزت كتفيها لا مبالية لأن رغبتها فى الفرار ربما تفوق فضولها فى اكتشاف حسنات رادولف.

غسلت شعرها فى المطبخ وعندما عادت تخلى رادولف عن قراءة مجلة وقام يتولى مهمة تجفيف شعرها.

شعرت لين ببعض الهدوء لوجودها قرب زوجها الذى رمى المنشفة أخيراً وأخذ وجهها بيديه القويتين محدقاً فى عينيها الزرقاوين.

ارتعشت شفتاها وكادت أن تبدأ بالبكاء وهى تتذكر زيارتها إلى

الكوافير حيث كانت تمضى أوقاتاً فرحة لحظات بعيدة كأنها تنتمى إلى أزمنة غابرة لن ترى لين لها وجهاً بعد اليوم.

انتشلها صوت رادولف الرقيق من تأملاتها:

- كم أنت جميلة يا لين.

جذبها إليه برقة وطبع على وجنتها قبلة حانية. لم تقاومه لين لكنها وجدت الدموع تترقرق فى عينيها.

- أرجوك! لم أعد أتحمل أكثر!

- حتى كلامى؟

- كل شىء! ألا تفهم أنى لا يمكن أن أعيش سجينة طيلة حياتى؟

ابتعدت لين عنه وشعرها ينسدل بفوضى على كتفيها ودموعها ترسم خطوطاً لامعة على وجهها الناعم.

أضافت بتوسل آملة فى أن يرق الغجرى لحالها:

- دعنى أذهب. لا يمكن أن تحبسنى فى هذه العربة إلى لأبد. أنت تعلم أن ذلك مستحيل.

أطرق رادولف يفكر فظنت لين أنها نجحت فى إثارة مشاعره الانسانية الراقدة فى أعماق شخصيته الشريرة. على أى حال هو قال أنها لم تر منه الجانب الأحسن بعد. فربما رأت هذا الجانب الآن.

تهاوت أحلامها عندما هز الرجل رأسه وأكد:

- أنت زوجتى ومكانك معى. نزوجتنى بارادتك...

- بارادتى! كيف تستطيع أن تقول ذلك؟

www.elromancia.com

- لماذا لم تبدى أى اعتراض خلال اتمام مراسيم الزواج؟

رمقها بنظرة ماكرة وأجاب على سؤاله بنفسه:

- لأنك كنت تأملين بالفرار لوجودك خارج العربة، أليس كذلك؟

- بالطبع كنت آمل فى لفرار، وهل تلومنى على ذلك؟

- وهذه الآمال مازالت موجودة على ما أعتقد.

تذكرت الشاب كونيل الذى أحضر لها قلماً. كما تذكرت المال فى حقيبتها وعرفت أن عليها إخفاؤه لئلا يكتشف زوجها خطتها.

- أنا بالفعل أنتظر الفرصة المناسبة للهرب. وأعتقد أن من يزرع فى موقعى يفعل الشىء نفسه.

تنهد رادولف طويلاًمعترفاً بصحة موقفها. نظرت إليه زوجته بذهول. هناك شىء عجيب فى هذا الرجل وفى هذه لقصة كلها. لربما استطاع كونيل أن يساعدها على حل اللغز المستعصى.

اقترب رادولف منها ووضع يده على كتفها محاولاً تهدئتها.

- أرجوك دعنى ولا تلمسنى...

ضمها إلى صدره بحنان فأخذت ترتعش بقوة حتى تركها أخيراً دون أن تبدر منه أية حركة عنيفة.

- مشطى شعرك قبل أن ينشف.

خبير حتى فى أمور النساء غير الغجريات. فهؤلاء لا يشغلهن التجميل فيتركن شعرهن على طبيعته ليزيد فى مظهرهن بدائية ووحشية.

لاشك أن رادولف يعرف أكثر مما يتوجب عليه غجرى لا يهتم بما يجرى فى العالم المتحضر. فالغجر عادة يكونون متقوقعين على أنفسهم، مكتفين ذاتياً فى عالمهم الخاص.

قطع صوت رادولف حبل أفكارها:

- بماذا تفكرين؟ أرى على وجهك مشكلة مزعجة.

- تماماً، مشكلة الهرب!

أكد الغجرى ببرود:

- مشكلة لن تجدى لها حلاً. ولكنى أرى شيئاً آخر فى عينيك فما هو؟

- وهل أنا مضطرة للإجابة؟

- بالطبع وإلا لما وجهت إليك السؤال.

نظرت إليه بتردد وقالت:

- قد لا يكون جوابى صادقاً.

- أنا أعرف بسهولة متى تكذبين علىّ.

ربما كان صحيحاً أن الغجر يملكون حاسة سادسة كما يدعون.

- كنت فى الحقيقة أستعيد ذكرى لقائنا الأول.

وأخيراً تجرأت على ذكر ما يتعلق بالحادثة الأولى. وكما توقعت تجهم وجه زوجها بسبب ذلك.

- من الأفضل أن تنسى اللقاء الأول.

لم تفهم لماذا يعتبر زوجها حادث تعطل السيارة تافهاً ويركز على

www.elromancia.com

الحادث الثانى فى الغابة. ولا تفهم كذلك لماذا يغضب لذكر الحادث الأول مع أن لين هى الطرف المهان والمجروح.

- ولماذا أنساه؟

- لأننى أحاول أن أنساه وإذا تحقق ذلك تحققت مصلحتك.

ملأتها كلماته حيرة وذهولاً فقالت:

- لا أعتقد أنى فهمت قصدك.

- لنغير الموضوع يا لين!

من يسمع لهجته الآمرة يظنه سيداً يكلم خادمته مع أن الحقيقة قد تكون العكس. فالفجر هم عادة الخدام وهم الوضعاء.

لم تأخذ لين بنصيحته وأصرت على اكمال الحديث:

- تريد نسيان الحادثة لأنك تخجل من نفسك!

- أخجل من نفسى؟

رفع حاجبيه تعجباً وأضاف:

- أنت من يجب أن يخجل من نفسه.

- ولكن...

- اخرسى ولا تجادلى!

خرست لين بالفعل واستأنفت تمشيط شعرها دون أن تفهم موقف زوجها. قررت أخيراً صرف النظر عن مناقسة الموضوع لأن ذلك لن يفيدها بشىء.

- أريد أن أجفف شعرى.

- ما رأيك بالخروج إلى الشمس؟

- أتمنى ذلك.

نهض من أريكته بكسل وعلى وجهه علامات الضجر.

اتجها إلى الغابة تراقبها نظرات النساء الفجريات الفضولية، لكن رادولف تفهم الموقف ولم يدع مجالاً لاختلاط زوجته ببقية قومه.

- أشعة الشمس قليلة هنا بسبب تشابك الأغصان. هلا اتجهنا صوب المنطقة المكشوفة للشمس؟

ابتسم رادولف وقال:

- لا يا عزيزتى لن نتجه صوب الطريق.

- أتخشى أن أحاول الفرار؟

- قد تقومين بمحاولة حمقاء.

- أعترف أنك مصيب لأنى لن أكف عن التفكير فى الهرب.

- أنت صريحة على الأقل.

- ماذا تعنى بعلى الأقل؟

- أعنى أن غطرستك وغرورك مثلاً يجعلانك تحتقرين الناس...

قاطعته لين:

- لو أننى متغطرسة فماذا تكون أنت؟

أجابها برقة كوالد يؤنب طفله المشاغب:

www.elromancia.com

- أنا أعاملك بالمثل ليس إلا.

مرة جديدة سامحها رادولف على كلامها القاسى فشكرت ربها لأنها تفادت غضبه.

تابعاً سيرهما بصمت تستغل لين فرصة وجودها خارج العربة لتشبع رئيتها هواء نقياً وعينيها خضرة حالمة. كانت من وقت إلى آخر تختلس النظر إلى زوجها فترى التناقض بين ملامحه الراقية وكونه غجرياً. مشيته تجعله يبدو نبيلاً وشعره المشعث المتراخى بفوضى يرده إلى طبيعته الغجرية.

اختار رادولف لهذه النزهة وادياً صغيراً تحفه الأشجار لا أمل فيه لزوجته بأن تلتقى أحداً يساعدها على الهرب.

قال رادولف وهو ينظر إلى شعرها:

- عليك أن تفهمى شيئاً يا لين. كونى مطيعة مهذبة معى تصبح حياتك ممتعة.

- أنا لا أتصور أية متعة فى العيش إلى جانبك!

كانت لين تتمنى لو أنه يمل منها سريعاً فيتركها تعود إلى بلادها.

عادا إلى العربة فأمرها رادولف بتحضير الطعام. وقفت لين ترمقه بنظرة تحد وهى تغلى من الغضب لمعاملته إياها كخادمة.

- لا أريد توجيه الأمر إليك مرتين لأنك تعرفين نتيجة ذلك جيداً!

على الرغم من الغيظ الذى غلف نبرته وجدت لين فى كلامه نوعاً من السأم والتعب من هذا الوضع.

لم تحضر لين إلا طبقاً واحداً فسألها زوجها:

- أين طعامك؟

- لست جائعة.

- مع ذلك ستأكلين إكراماً لى. لأنى لا أحب الجلوس بمفردى إلى المائدة.

- من تظن نفسك حتى ترغمنى على الأكل؟ أشعر كأنك سيد مستبد يفعل باتباعه ما يشاء!

تخلت لين عن المجادلة فى النهاية فأحضرت طبقاً وجلست تأكل رغم أنفها.

- أرى أن دروسى فى تعليمك الطاعة بدأت تثمر يا حلوتى!

قالت لين بمرارة:

- السلطة والسيطرة توفران لك الرضى والغرور أليس كذلك؟

- أصبت، إذ أن كل ما يذلك يمتعنى، وأعدك بأن هذا العقاب البطىء لن ينتهى قريباً.

- النهاية؟ تكلمت عن نهاية العذاب!

- بالطبع فأنا لا أنوى أن أطيل العذاب أربعين أو خمسين سنة.

ارتعدت لين للفكرة وتصورت نفسها تمضى حياتها فى هذه العربة.

- أتمنى أن أموت الآن، فهذا أفضل.

زال المرح والعبث من عينى رادولف وقال:

- طفلة رائعة مثلك يجب أن تتمتع بالحياة لا أن تتكلم عن الموت.

www.elromancia.com

تخلت لين عن حذرها وانفجرت غاضبة:

- لا تتكلم كالأبله فأنت تدرك أن حياتى هنا جحيم لا يطاق!

وافق رادولف وقال ملمحا إلى شىء تجهله زوجته:

- حالياً فقط.

- حالياً وأبداً إذا عشت لك واستمريت فى سجنى.

- فلنغير الموضوع يا لين. أخبرينى عنك فأنا لا أعلم كم تبلغين من العمر مثلاً! تصورى أن زوجك لا يعرف عمرك.

- أنا فى الرابعة والعشرين.

- وأنا تخطيت الثلاثين ببضعة شهور. أخبرينى المزيد عنك، أخبرينى فأنا أحب سماع صوتك.

- لا أعتقد أنك تحب أى شىء.

- من المؤسف أنك تفسدين حلاوة صوتك أحياناً بتصرفاتك الرعناء.

استرسلت لين فى الحديث واستمتع رادولف بالاطلاع على تفاصيل حياتها.

- يبدو أن توماس هذا ممل بعض الشىء.

- كيف عرفت ذلك؟

- من خلال حديثك عنه. نحن الفجر أذكياء يا عزيزتى!

- أنا لم أقصد اظهاره مملاً.

- توماس ليس الرجل المناسب لك يا جميلتى.

- أنت مخطىء فى حكمك على توماس.

- توقعت أن تنكرى ذلك. يا لك من شخصية شفافة يا لين اقراها بكل سهولة.

صبت المرأة اهتمامها على طبقها لتفادى نظراته الحادة القوية فأكمل الفجرى الكلام:

- من المؤسف أن تكونى مصابة بعقدة التفوق حتى لا أقول جنون العظمة. يجب أن تتعلمى أن جميع الناس سواسية وأن المجتمع الفجرى ليس فاسداً لأنه يختلف عن مجتمعك. لا يجدر بك احتقار الناس لمجرد انتمائهم. المجرم وحده هو الذى يستحق الاحتقار والنبذ.

كان صوته مختلفاً هذه المرة حتى أن لين وجدت فيه رنة موسيقية كاللهجة الايرلندية. برغم أنه يكون أحياناً قاسياً فإن لهجته تختلف عن لهجة بقية الفجر. لم تفهم لين لماذا أو لم يعد يهمها أن تفهم مادام هدفها واضحاً: الهرب.

- لم يتهمنى أحد من قبل بهذه العقد التى تتحدث عنها.

- لكنك أظهرت عقدتك تجاهى.

تبع ذلك صمت بارد وتشنج الجو بينهما. أحست لين بأن الفجرى يكاد ينفجر غضباً وبالفعل قال لها بفظاظة:

- إذا أخطأت بعد اليوم سأملأ جسمك بقعاً زرقاء... أفهمت؟!

أشاحت المرأة وجهها لئلا تواجه عينيه القادحتين شرراً.

بعد قليل خرج رادولف فعادت لين إلى وحدتها المملة برغم أنها لا

تستسيغ صحبة زوجها، لكن وجوده أفضل من لا شيء.

استغلت فرصة غيابه لتخرج المال من حقيبتها وتخبئه وراء بعض المعلبات فى خزانة المطبخ. ثم انصرفت لكتابة رسالة قصيرة إلى الشاب الغجرى كونيل تعده فيها بمكافأة مالية فورية وأخرى ترسلها له بعد فرارها على عنوان يحدده هو. قررت لين أن تمنحه كل ما ادخرته خلال عملها، فهى مستعدة للتضحية بكل شيء لقاء خروجها من هذا النفق المظلم. لن يستطيع كونيل مقاومة اغراء العرض وسيتدبر طريقة لتهريبها فى أول فرصة تسنح له.

بعد الانتهاء من الكتابة جلست المرأة الشابة على طرف السرير تمضى الساعات فى التفكير بمصيبتها التى حلت عليها فجأة، وتتخيل نفسها حرة طليقة، إلى أن غلبها النعاس أخيراً وتسلل النوم إلى عينيها.

٥. سجان العواطف

استيقظت لين، والظلام الدامس يلف العربة، على صوت الغجر يغنون ويرقصون حول نار كبيرة أشعلت فى وسط المخيم. ولم تستطع إلا أن تستعيد ذكريات حياتها الهادئة فى انجلترا ووظيفتها المحترمة فى شركة الهندسة الزراعية. ساهم ذلك فى زيادة توترها إلى درجة خافت معها أن تفقد صوابها يوماً إذا استمرت على هذا الحال. ماذا سيجنى رادولف من وجود امرأة مجنونة معه؟ لو يدرك ويعلم أن كليهما بلا شك خاسر لأطلق سراحها فوراً.

فجأة سمعت طرقاً خفيفاً على النافذة فهبت من سريرها وأزاحت الستار بسرعة.

- كونيل!

تكلم الشاب بصوت هامس:

- اخفضى صوتك لئلا يسمعنا أحد!

لكن الإثارة وفرط التوتر جرادها من كل خوف وحذر.

- لا تقلق. الكل مشغولون عنى الآن.

www.elromancia.com

- هل كتبت الرسالة؟

هرعت لين وأحضرت له الورقة.

- أرجوك انتبه يا كونيل حتى لا يراك أحد.

- على الذهاب الآن. طابت ليلتك.

- شكراً جزيلاً يا كونيل على ما تفعله من أجلى.

قال الشاب قبل أن يختفى فى الظلام:

- لا أعلم ما إذا كنت قادراً على مساعدتك، لكنى سأبذل جهدى.

خافت لين من أن يكون أحدهم قد شاهد كونيل يتحدث إليها أجالت نظرها فى الخارج لترى ما إذا كان زوجها يراقب المشهد ويستعد للانقضاض من جديد على فريسته الضعيفة. لكن كل شىء كان هادئاً ولم يبد وأثر لإنسان حول العربة.

بعد نصف ساعة عاد رادولف إلى «المنزل الزوجى» دون أن تظهر على وجهه علامات تفيد أنه اطلع على ما حدث. أضاء المصباح العتيق بعد أن رأى أن زوجته غير نائمة.

- لماذا تجلسين فى الظلام؟ أتحبين أن تعذبى نفسك؟

- ولماذا تهتم أنت بعذابى؟

- فى الحقيقة أنا لا أحفل بعذابك.

وأضاف بنبرته الخشنة:

- ماذا فعلت فى غيابى؟

- لا شىء!

توجه رادولف نحو المطبخ وسأل زوجته:

- أتريدين بعض الشاى؟

- كلا.

- لابد أنك شربت فنجاناً إذن؟

- لا.

سمعته لين يتنهد فى تحسر وهو يعد الشاى وتساءلت لماذا لم يطلب منها أن تحضره بنفسها.

عاد بعد قليل يحمل فنجاناً فسألته بإصرار:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

توقعت لين جواباً قاسياً يشعل مشادة جديدة. لكنها فوجئت به يرمقها بنظرة ناعمة مليئة بالحنان. هى قصدت من سؤالها اشعال غضبه لتعذبه لكنه خيب أملها بهدوئه الشديد.

جلس يشرب الشاى الساخن ويراقب زوجته بنظرة لا مبالية.

- أريد أن أراك غداً بثياب جديدة.

أفزعت لين دفعة واحدة كل الغضب الذى جمعته فى وحدتها وقالت:

- سأرتدى ما يحلو لى.

- لا تحاولى أن يراك زوجك بمظهر المرأة الشريرة. سترتدين شيئاً مما أحضرت معك لتمضية العطلة الممتعة.

www.elromancia.com

تاهت عيناها فى حقيبتيها المقفلتين على بعض من ذكريات، قريبة كالوقت بعيدة كالحلم. كيف تضع ثيابها الأنيقة فى خزانة العربة القذرة؟

ليس من المعقول أن تكون هذه العربة ملكا لرادولف فهو يبدو محباً للنظافة والترتيب. ثم أنه لا يحتفظ فيها بثيابه. تحفظه حول خصوصياته يحيرها كثيراً ولكنها لا ترغب فى الاطلاع على خفايا حياته لأن تفكيرها كله انصب الآن على هدف وحيد: الفرار.

قالت لزوجها بعد تردد:

- لا أرى معنى لارتدائى ثياباً جميلة وبقائى سجينة هذه الزنزانة!

- لن تبقى هنا لأننا سننتقل غداً بسيارتك إلى مكان آخر.

أحسست لين أن قلبها توقف عن الخفقان لأن الآمال التى علقتها على مساعدة كونيل انهارت بلحظة.

- هل يرحل الجميع لمكان آخر.

- لا. نحن فقط.

كادت لين بعفويتها تفضح كل شىء.

- لا أريد أن أغادر المخيم.

صعق رادولف لملاحظتها وأخذ ينظر إليها دون أن يفهم.

- وهل تستسيغين البقاء هنا إلى هذا الحد؟ مع إنك لم تكفى عن التذمر من الضجر لوجودك هنا.

عضت لين على شفتها تحاول إيجاد جواب لا يفضحها. واستطاعت بعد جهد أن تقول:

- المكان الذى سنذهب إليه لن يكون أحسن من هنا. وأنا لا أنوى تمضية وقتى بالتنقل الدائم كالفجر المتشردين.

لن تأبه المرأة لغضب زوجها من كلامها لأن عقلها كان مشغولاً بفرصة الهرب الضائعة. ظنت أن الفرج سيأتيها أخيراً على يد كونيل لكنها وجدت نفسها تفقد الأمل وتعود إلى نقطة الصفر.

برغم كل شىء حافظ الغجرى على هدوئه ولم يظهر انفعاله لنعت زوجته قومه بالمتشردين.

- لا تحاولى الاعتراض لأنى مضطر لمغادرة المخيم.

- ولماذا تكون مضطراً للرحيل؟

- لا ضرورة لأن تعرفى.

- وهل سنجد عربة خالية لإقامتنا فى المخيم الذى سنقصده؟

- بالطبع. ألست ملك الغجر كما قلت يا عزيزتى؟ والرعية لن تدخر جهداً لتوفر مكان إقامة مريحا لملكها.

أخذت لين تجوب العربة وهى تفكر بالمخيم الجديد والعربة الجديدة القذرة، وبمزيد من هؤلاء الناس السمر الفضوليين. سجن جديد وحراس جدد يرصدون تحركاتها عندما يكون زوجها غائباً.

وفجأة انهارت أعصابها وصرخت:

- لا أستطيع تحمل المزيد! لا أستطيع البقاء سجينة. سيقتلنى هذا الوضع الردىء!

وأضافت وهى تحدق فى رادولف:

www.elromancia.com

- كيف تمضون أيامكم بهذا الكسل دون عمل؟ ألا تملون؟

وضع الغجرى فنجانه على الطاولة ونهض من كرسيه دون أن يظهر عليه أى انفعال مما زاد من حيرة لين التى قالت:

- هناك لغز فى حياتك! هناك سر ما إلى أين تذهب كل يوم فأنت ولاشك لا تبقى فى المخيم؟

أزاح الغجرى وجهه وكأن ملاحظاتها أحرجته فاستغلت لين الفرصة وتابعت بالحاح شديد:

- أريد أن أعرف كل شىء! أنت تردد باستمرار أنى زوجتك ففى هذه الحال يحق لى أن أعرف أين وكيف يمضى زوجى أوقاته؟

- أنت لا تعتبرى نفسك زوجتى حتى لآن. فعندما تعتبرين أننا متساويان ستعرفين كل شىء. لكن ما دمت تعتقدين أنك متفوقة على لأننى غجرى فلن أطلعك على الحقيقة.

كل شىء فى هذا الرجل يزيد من اللغز غموضاً: جسمه الرشيق، مشيته المتعالية، كبرياؤه وسطوته، ثقته المفرطة بنفسه، ومرة جديدة قالت لين فى نفسها: لو لم أكن أعلم أنه غجرى لما صدقت ابداء أنه كذلك. عندها فكرت بأولاف وبحديثه عن وضع رادولف الخاص، فتلك الكلمة انطبعت فى مخيلة لين وجعلتها تظن أن زوجها هو ملك الغجر. هو ليس بالطبع ملك الغجر لكنه يتميز عنهم بشىء ما...

لما نظر إليها رأت فى عينيه مرارة كبيرة كأنه يطلب منها أن تتفهمه وتساعده على تخطى مشكلة تؤرق حياته.

- إلىٰ أين سنذهب؟ أعنى أين يقع المخيم الذى تحدثت عنه؟

- فى مكان بعيد جداً.

- ولكن، ماذا سنفعل بالحصان؟ لا يمكنك أخذه إذن، إذا كنا سنستعمل السيارة.

كان رد رادولف هادئاً وعادياً جداً:

- بما أنى سرقته سأعمل على رده إلى أصحابه.

- لا ضرورة لأن تستغل كل فرصة تسنح لك لتسخر منى.

- ولكنك افترضت أنى سرقته، أليس كذلك؟

- ولماذا لا تقول لى من أين حصلت عليه؟ فأنت توافق معى على أنك لست قادراً مادياً على امتلاك مثل هذا الحصان الماهر.

كل كلمة، كل حركة، كل دقيقة تمر كانت تزيد من غموض اللغز وصعوبته بالنسبة إلى المرأة. ما السبيل إلى اكتشاف الحقيقة وإزاحة الستار عن الجوانب الخفية فى حياة الغجرى؟ قد يكون الوقت كفيلاً بذلك... وقد لا يكون.

- لم أفهم تماماً معنى كلامك.

- بصراحة، أعنى أن مظهرك لا يقنع أبداً بأن هذا الحصان الأصيل ملك لك.

كانت الإهانة الجديدة أقوى من أن يتحملها الرجل. فعندما تكلم بدا فاقداً تماماً سيطرته على أعصابه، يعميه الحقد.

- لابد أن يقودك لسانك يوماً إلى مهالك لا نجاة منها.

اعتذرت لين على الفور، وحاولت تغيير وجهة الحديث.

www.elromancia.com

- آسفة لأنى أسأت التعبير. ألن تخبرنى من أين حصلت على الحصان؟ أنه حصان أصيل أن لم أكن مخطئة.

- من أين لك هذه المعلومات عن الجياد؟

- كنت أمارس الفروسية لبضع سنوات خلت.

وبدلاً من يجيب على تساؤلها حمل رادولف فنجانه إلى المطبخ ولما عاد قال بحسم:

- حان وقت النوم لأننا سننهض باكراً فى الغد.

تعمد رادولف البحث فى حقيبة زوجته حتى وجد فستاناً قطنياً أزرق موشى بالرسوم.

- سترتدين هذا الفستان غداً لأنه يبرز جمالك وأنوثتك.

خطفت الفستان من يد زوجها ورمت به على الأرض رافضة فكرة فرضه ارتداء الملابس عليها. ولكن رادولف لم يتسامح هذه المرة، بل أمسك بشعرها وصفعها على وجهها بعنف حتى كاد يرميها أرضاً. وقفت المرأة أمامه ترتعش فهى لم تتعرض فى حياتها للضرب أبداً.

- التقطى الثوب!

أطاعت أمره ودفنت وجهها فى الثوب ثم صرخت بصوت مخنوق:

- لن أستطيع الاستمرار طويلاً! لن أستطيع الصمود... سأنتحر!

فوجىء الرجل لهذا التهديد ووقف يحدق فى زوجته لحظات طويلة قبل أن يضمها بحنان إلى صدره ويقول بكل ما لديه من رقة:

- لماذا تغضبيننى يا عزيزتى وترغمينى على استعمال العنف؟

أضاف وهو يتحسس بيده القوية وجنتيها اللاهبتين:

- لو كنت تتصرفين بهدوء...

توقف محاولاً تهدئة جسمها المنتفض ألماً وحزناً ثم تابع:

- على المرء أن يكون حذراً عند ما يتعامل مع غجرى.

بصعوبة، رفعت عينيها الرطبيتين إلى وجه زوجها وتمتمت:

- أنت مختلف... يا ليتك تظل حنوناً كما كنت الآن...

أمر لا يصدق! كيف تسر لين لوجودها فى أحضان هذا الرجل الذى لا تكف ثانيه عن التفكير فى كيفية الافلات من يده؟ لماذا لم تنفر هذه المرة من لمساته؟

أضافت والكلمات تسبقها:

- لماذا أنت مختلف؟

بدا على رادولف كأنه يقبل بهذه الحقيقة ولكنه لايقوى على أن يصرح بالسبب لأن هناك أمراً خطيراً يمنعه من ذلك، لربما كان أمراً يتعلق بالماضى الذى يمتد تأثيره على المستقبل.

- لا أستطيع يا عزيزتى أن أشرح لك الحقيقة...

ابتعد عنها وزاد:

- هيا إلى النوم يا حلوتى.

وقفت لين مشدوهة وهى تشاهد زوجها يتوجه إلى المطبخ ليحضر بعض الماء. واستغربت التبدل العميق الذى أحدثه تهديدها بالانتحار

www.elromancia.com

فى هذا الفجرى الغريب. لم تعد تأبه بالألم الذى سببه لها بل انحصر تفكيرها فى التوصل إلى أعماق ومغاور نفسه وكشف حقيقته.

عندما عاد رادولف إلى الغرفة أخذ يحدق فيها ويتأمل جمالها الصارخ، ولاحظت الزوجة الحائرة العروق فى عنقه تنبض بعصبية.

وعندما انتقلت عينا الفجرى إلى وجهها حيث مازالت آثار الصفعات واضحة، ظهر عليه الأسف والندم الشديدان على استعماله العنف، تماماً كما ندمت لين على استعمالها الطريقة نفسها فى الغابة. اقترب منها وأخذ رأسها بكلتا يديه محاولاً الاعتذار، غفت لين بين ذراعيه ورأسها غارق فى صدره وتحس بقلبها خالياً من الحقد والمرارة. الشىء الوحيد الذى تدركه فى هذه اللحظة هو الارتياح لأن كل شىء بسلام أو بشبه سلام... وذلك بفضل تفهم رادولف لوضعها ولاكتفائه بطبع قبلة خاطفة على جبينها.

أمضى الزوجان الشابان معظم النهار فى السيارة يتجهان إلى حيث تجهل لين. تمتعاً بالطقس الجميل وساهمت الشمس الدافئة بإزالة حاجز العداء بينهما. لقد فرحت لين لوجودها بعيداً عن أى من مظاهر الحياة الفجرية التى كرهتها والتى أسقط واقعها المر أحلاماً شاعرية، بنتها لها قصص الأدباء وعمرتها أخيلة الشعراء.

لا تستطيع المرأة الانجليزية التى تعودت على صخب الحياة أن تحيا هكذا وبدون هدف كنبتة طفيلية تعيش على جهد غيرها. لابد لها من هدف واضح فى حياتها تصبو إليه وتعمل على تحقيقه. فالطريق أن لم يفض إلى مكان ليس طريقاً. وقطار الحياة أن لم يقصد محطة ما يصير كابوساً.

كم كان كونيل مهماً بالنسبة إليها وكم أحست بالحسرة لأنها ابتعدت عنه! كان حلماً خرج من العدم ليخصب أرضاً جدباء. فإذا بيد رادولف تمتد لتخنق الحلم وهو فى المهد، ولترمى بلين فى مكان جديد لاتعلم ماذا ينتظرها فيه سوى مزيد من الوحدة والملل. لكن ما أبقى فى نفسها بصيصاً من أمل هو تلميح رادولف إلى إمكانية العودة إلى المخيم نفسه فى يوم آخر قريب.

لاحظت لين، الغارقة فى المقعد الوثير، أن رادولف لا يلاقى أية صعوبة فى القيادة مع أن الفجر لا يحسنون عادة قيادة السيارات مفضلين وسيلتهم القديمة للتنقل: الحصان.

لاحظ رادولف أن لين لم تكف عن مراقبته طوال الطريق فسألها:

ـ بماذا تفكرين؟ أراك تفكرين فى أمر مهم.

ـ أراقب طريقة قيادتك فأنت سائق ماهر على ما أرى.

ـ العادة كفيلة بتعليم المرء كل شىء.

ـ صحيح، لكنى أعرف أنك متعود على ركوب الخيل خصوصاً وإنك قلت مرة إنك تستعمل الجياد لا السيارات.

كانت لين تشير بكلامها إلى جملة قالها رادولف عندما التقيا للمرة الأولى قرب سيارتها المعطلة. حاول الفجرى أن يتذكر ذلك ثم هز رأسه نافياً.

ـ لابد أنك واهمة فأنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل.

ـ أنسيت ما قلته فى لقائنا الأول؟

www.elromancia.com

ـ نحن لم نتبادل كلاماً يذكر فى لقائنا الأول. يبدو أن خيالك واسع يا عزيزتى!

أنبأها حدسها أن رادولف يتحدث عن اللقاء الثانى عندما اختطفها على أثر ضربة السوط. أثار حنقها عدم اكتراثه الدائم بالحادثة الأولى وتركيزه على الثانية، وكأن لين ارتكبت يومها جريمة لا تغتفر محت آثار فعلته البشعة.

بعد أحداث اليوم السابق تحول رادولف بسرعة من رجل شرس وحشى الطباع، إلى إنسان هادىء وديع لا تثور أعصابه بسهولة أهو مصاب بانفصام فى شخصيته يتصارع فيها الخير والشر بعنف بشكل يجعله متلوناً من ساعة إلى أخرى؟ أيحاول الجانب الخير الانتصار على الجانب الشرير والافلات من براثن الغرائز البدائية؟ أن هذا الصراع ينعكس على لين بشكل دراماتيكى يجعلها رهينة مزاج زوجها المتقلب... ما حدث البارحة يعزز اعتقاد لين. فرادولف هدأ بعد أن انفجر بشدة وطغى عليه جانبه الانسانى بعد أن بدا نادماً على ضربه لها. حاول التكفير عن ذنبه بملاطفتها وتطييب خاطرها، وعندما أفاق فى الصباح نظف الفستان الذى رمته على الأرض، ثم أحضره لها وألبسها إياه بكل رقة ونعومة.

مراع خضراء على امتداد النظر رافقتهما فى تجوالهما. «تحرسها» هضاب واسعة مغطاة بأشجار خضراء عالية تهمس فى أذن السماء الصافية أشعاراً وألحاناً. أوقف رادولف السيارة فى مكان أخضر فسيح فى منطقة تدعى كيلارنى. وسار العروسان إلى بقعة منعزلة فيها بحيرة جميلة تقع على سفح جبل عال.

كادت الدهشة تعقد لسان لين فأخذت تتأمل هذه الجنة الرائعة تغرف من جمالها وبراءتها فيفيض البهاء فى نفسها عذوبة وصفاء.

ـ ما أجمل هذا المكان! كيف تعرفت إليه؟

ـ أنا أعرف أيرلندا كلها.

شع فى عينى المرأة الشابة بريق وارتسمت على شفتيها ابتسامة هانئة وأحست بنفسها تسبح فى بحر عات من الأحلام. شعرت بالدفء يغمرها عندما طوقها رادولف بذراعيه... ليته يتكلم معها بوضوح لتعرف المزيد عنه وترتاح...

ـ تعالى، علينا ألا نضيع المزيد من الوقت!

نظرت إليه بحيرة وقالت:

ـ قل على الأقل إلى أين نتجه؟

ـ ستعرفين عندما نصل.

ـ لن أعرف شيئاً فانا أشعر بالضياع.

ضحك رادولف وقال:

ـ نحن فى كيلارنى وهذا الجبل يدعى الجبل القرمزى.

ـ لم يفدنى شرحك كثيراً.

ـ أيهمك إلى هذا الحد الاطلاع على كل التفاصيل؟

ـ فى الحقيقة، لا.

عاد رادولف بسرعة إلى السيارة وجلب سلة مليئة بالطعام. وأبلغ

www.elromancia.com

زوجته كالعادة أنه سرق السلة ومحتوياتها لكن المرأة لم تقتنع بكلامه.

ـ أنت لم تسرق شيئاً!

ـ أتحاولين تبرئة نفسك من وجودك مع زوج لص لا يعرف إلا السرقة وسيلة لكسب الرزق؟

أصاب رادولف بسؤاله لأن لين كانت تكره فكرة كونه لصاً. أرادته رجلاً شريفاً يحصل على لقمة عيشه بعمله وكده... ولكن لماذا تجد نفسها مهمته بسلوكه؟ ما الفارق فى أن يكون رادولف لصاً أو رجلاً شريفاً مادامت ستهرب منه يوماً لتستعيد حريتها الغالية؟

٦ . معاناة غجرى

أخذت لين تتساءل عما إذا كان رادولف قد سرق كل هذه الأغراض، فمن أين إذن أتى بالأطباق والسكاكين والملاعق خاصة وأنها من الصنف الغالى؟ لابد أنه يسرق مثل هذه الأشياء لإعادة بيعها إلى تاجر شريك بأسعار زهيدة.

سألته فيما هو مشغول بتحضير الموقد:

ـ بماذا يمكننى مساعدتك؟

ـ هلا أحضرت الأطباق ووضعتها على المفرش؟

ـ حسناً.

تابعت لين وهى ترى الأطعمة المختلفة فى السلة:

ـ من أين جئت بكل هذا؟

جاء جوابه ساخراً كما توقعت:

ـ السرقة وسيلتى المفضلة، لا بل الوحيدة!

تنهدت المرأة وأقرت بأن استمرارها فى طرح هذه الأسئلة يعنى

www.elromancia.com

استمرار تلقيها مثل هذه الأجوبة الساخرة. لكنها لم تترك كلماته تمر دون تعليق فقالت:

- توقعت أن تكون فعلت ذلك ولكن من أين سرقت هذه الأغراض؟

عندما ضحك الغجرى وبانت أسنانه الناصعة، شعرت لين بقلبها يخفق بقوة. وحاولت أن تكتم شعورها المتزايد بزوجها الوسيم.

- أغرت فى الليل على مطعم قريب من المخيم، لقد كانت مهمة غاية فى لسهولة!

- لا تختلق الأكاذيب. لا يوجد أى مطعم بالقرب من المخيم!

- أنت مخطئة يا عزيزتى لأنك لا تعرفين المنطقة كما أعرفها.

برغم دقة الموضوع ساد الحوار جو لطيف. وحرصت لين جاهدة على عدم إثارة رادولف لئلا يعود إلى مزاجه الشرس .

- أمازلت مصممة على الفرار؟

أجابت المرأة بكل عزم:

- بالطبع، وماذا تتوقع منى غير ذلك؟

أشاح رادولف بوجهه كى لا تظهر انفعالاته وصرح بصوت مرتجف بعض الشىء:

- برغم البداية السيئة يمكننا أن نعيش معاً حياة رائعة.

توقف ليستجمع أفكاره ثم أضاف:

- اليوم مثلاً سار كل شىء على ما يرام.

- لا أعتقد أن يوماً واحداً من التفاهم يبنى حياة مشتركة.

- كل طريق يبدأ بخطوة. فلنعتبر اليوم خطوة أولى ومثالاً نحتذيه فى تصرفاتنا.

لم تصدق لين أن هذا الرجل الذى يتكلم أمامها هو رادولف. أين التعالى والغطرسة فى صوته؟ أين نظراته الساخرة ونبرته المتهكمة؟

من عادة رادولف إعطاء الأوامر والتلذذ بتنفيذها، لكنه الآن يطلب من زوجته العيش معه لا بل هو يتوسل إليها!

- اسمع يا رادولف، أنا لا أنوى أن أمضى حياتى متنقلة من مكان إلى آخر لأنى أحب الاستقرار. أضف إلى ذلك أننى لا أحبك ولن يحدث. وتبعاً لذلك يغدو طلبك غير قابل للاستجابة.

التفت رادولف إليها فوجدت صعوبة فى إزاحة نظراتها المتأثرة ببريق عينيه السوداوين.

- متى سنصل مقصدنا؟

- لازالت أمامنا الكثير من الأميال لم نقطعها بعد.

لم تقنع لين بهذا الكلام فقالت:

- هذا ليس بجواب، ألا تستطيع أن تكون أكثر وضوحاً؟

- أعتقد أنه علينا اجتيازحوالى الخمسين ميلا.

تنهدت المرأة وتمتمت شاكية:

- أود لو أعرف سبب رحلتنا هذه.

- كونى على ثقة بأن السبب وجيه جداً.

فى السيارة شاركها رادولف تساؤلها عندما قال:

www.elromancia.com

- أرى أنك لم تحاولى الهرب اليوم!

- لم أجد فائدة فى ذلك لأنك بدون شك أسرع منى فى العدو، فلو حاولت ذلك لأمسكتنى بسهولة.

- هذا صحيح ولكن مع ذلك أتيحت لك عدة فرص للإفلات، خصوصاً عندما كنت أحضر الطعام من السيارة.

- لقد فكرت فى جميع هذه الفرص ووجدتها خاسرة لأننى كنت سألقى عقاباً شديداً على فعلتى!

لاحظت لين انفعاله وإن لم يعلق على الكلام بشىء. ظل صامتاً حتى وصلا أخيراً إلى طريق ضيق يقع فى نهايته مخيم للغجر.

- سنتوقف هنا يا حلوتى.

- أهذا هو المكان الذى نقصد؟

- كلا، هذه مجرد محطة قصيرة فى رحلتنا.

أوقف السيارة قرب إحدى العربات وأضاف:

- ابقى هنا فلن أغيب أكثر من بضع دقائق.

وأخيراً وجدت لين فرصة ذهبية لتفلت من قبضة خاطفها فهزت برأسها موافقة وغرقت فى مقعدها تنتظر ابتعاد زوجها عن السيارة.

تقدم منه بعض الرجال السمر وغرق الجميع فى أحاديث هامة لم تسمع لين منها شيئاً. ثم تحسست مقبض باب السيارة وإدارته على مهل، ونظرت إلى زوجها الذى أدار نظرة لها. بعد ذلك لمحت الرجال يرمونها، بين لحظة وأخرى، بنظرات فضولية فتوترت أعصابها وصارت خائفة من الاقدام على خطوة الفرار. شيئاً فشيئاً فترت همتها

ورأت أن لا فائدة من المحاولة لأن الجميع فى المخيم سيكونون فى أعقابها ويعيدونها سجينة. لذلك أعادت إغلاق الباب كما فتحته بهدوء وفتحت زجاج النافذة لتسترق السمع. فأصيبت بالخيبة لأن الحديث كان باللغة الغجرية. لابد أن لما يدور بين هؤلاء الرجال أهمية قصوى بالنسبة لزوجها وبالنسبة لها. عندها أطل رجل عجوز انضم إلى الرجال وتحدث بالانجليزية فتمكنت من سماع ما قال:

- إنه لم يأت يا رادولف. اهدأ ودعه وشأنه لأنك تعذب نفسك بدون جدوى. لقد نصحتك مرات عديدة...

قاطعه رادولف فنظر العجوز إلى السيارة وأكمل كلامه بلغة أهل قومه حتى لا تفهم لين شيئاً.

بعد قليل عاد رادولف إلى السيارة غاضباً لفشله فى الوصول إلى هدفه السرى.

انطلق بالسيارة دون أن يكلف نفسه مشقة الالتفات إلى زوجته ولم يحرك ساكناً إلا عندما انتبه إلى أن السيارة تحتاج إلى الوقود. فقد استنفذت الرحلة محتويات الخزان الذى ملأه رادولف فى الليلة الماضية. عاد الغجرى أدراجه إلى المخيم وأشار إلى أحد الرجال كى يأخذ السيارة ويملأ خزانها بالوقود.

ترجلت لين وهى تتحسر على فرصة أخرى ضائعة للافلات. إذ أنها خططت للانطلاق بالسيارة فيما رادولف منشغل فى المحطة بتعبئة الوقود ودفع المال. أما الآن فها هى معه فى المخيم ويدها حبيسة يده على سبيل الاحتراز ومنعاً لأية محاولة فاشلة تبدر منها.

عندما أخرج رادولف المحفظة من جيبه ليعطى المال للغجرى

www.elromancia.com

لاحظت لين أن فيها مبلغاً كبيراً، فقالت:

- يبدو أن لديك الكثير من المال...

غابت رنة المزاح من صوت رادولف هذه المرة عندما أكمل:

- ... المسروق.

كان بلاشك منشغل الفكر بما أخبره هؤلاء الرجال فلم ينصرف إلى المزاح والمرح كعادته. من الواضح أنه ينتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن شخص ما فهذا ما استنتجته لين بسهولة من كلام أولاف وكلام الرجل العجوز. ولكن هذا لا يفسر اللغز كاملاً بل يطرح سؤالاً جديداً: من هو الشخص الذى يبحث رادولف عنه؟ وهذا السؤال يستتبع أسئلة كثيرة منها: لماذا يبحث زوجها عنه وماذا سيفعل عندما يجده... ومن الواضح أيضاً أنه ليس من السهل العثور على هذا الشخص كما أنه ليس من السهل أن يهدأ رادولف ويكف عن البحث عنه. فهو مستعد لأن يجوب أيرلندا عرضاً وطولاً ليصل إلى ضالته المنشودة. وما زاد الأمر غرابة كون رادولف يملك المال الكافى ليغطى نفقات رحلاته المكلفة... ولكن ما يبعث الأمل فى نفس لين هو أن الفرصة المؤاتية للفرار لابد آتية فى إحدى هذه الرحلات. لأن حرص زوجها مهما كان دقيقاً لن يثنيها من الهرب.

كانت الشمس قد بدأت بالأفول عندما وصل الزوجان إلى المخيم المقصود، وبريق النجوم بدأ ينفذ من بين أغصان الأشجار الكثيفة. أقيم المخيم فى إطار طبيعى خلاب فى حضن سهل فسيح محاط بجبال عالية ومروى ببحيرات متناثرة هنا وهناك تتجمع فيها مياه الشتاء المتدحرجة من القمم الشاهقة.

كالعادة، هجم الرجال والنسوة والأطفال لملاقاة رادولف مرحبين به بلغتهم الغجرية. تكلم رادولف فنظر الجميع باعجاب إلى لين وهم يطلقون عبارات الدهشة والفرح. ففهمت المرأة أنه شرح لهم أنها زوجته. بعد ذلك توجه وإياها إلى إحدى العربات الخالية وكأنهم كانوا ينتظرون رادولف وأعدت العدة لاستقباله.

بعد أن أصبحا فى الداخل طرحت لين السؤال الذى يقلقها:

- إلى متى سنبقى هنا؟ أحس وكأنى سلعة يتفرج عليها الجميع فى معرض!

- سيعتادون عليك ويعتبرون وجودك طبيعياً مع الوقت.

- ألم يفاجئهم أمر زواجك؟

ابتسم رادولف مجيباً:

- لم يفاجئهم بل أدهشهم.

- أيدهشهم ذلك لأنك كنت معروفاً باصرارك على عدم لزواج؟

- تماماً.

- من المؤسف أنك رجعت عن مبادئك وتخليت عن اصرارك!

امتلأت نفس لين بالحزن والخيبة من جديد. فاليوم الممتع الوحيد الذى مر أصبح جزءاً من الماضى والذكريات، وها هى الآن تعود إلى أحاسيس الوحدة والضجر من جديد. أعادت إليها العربة الجديدة دور السجينة مرة أخرى عندما اختطفها رادولف وأجبرها على أن تصبح زوجته. لكن ما يخفف من وطأة المرارة هو كون العربة الجديدة فى حالة أفضل بكثير من العربة السابقة. فالجديدة أحدث وأنظف.

لاحظ رادولف حزنها فسألها:

www.elromancia.com

- ما بك الآن؟ أنا لم أر فى حياتى إنساناً متقلب المزاج مثلك!

- وماذا عن مزاجك؟ إليس حاداً وقاسياً كمزاج وحش مفترس؟

- لم أقل أن طباعك حادة بل متقلبة فحسب، أحياناً أراك فرحة وأحياناً أخرى حزينة!

أجال طرفه فى العربة وأضاف:

- أنظرى حولك، ألا تجدين أن العربة نظيفة ومريحة؟ سأجلب حقيبتك من السيارة لتضعى ثيابك فى الدولاب.

أحضر رادولف حقيبتى زوجته وحقيبة ثالثة وضع فيها ثيابه. جلست لين تراقبه بدهشة يخرج ثياباً أنيقة من حقيبته لا يملكها إلا الأثرياء وأصحاب الذوق الرفيع.

أدرك الغجرى أن زوجته فوجئت بما يملك فقال:

- تركتك نائمة البارحة وسرقت كل هذه...

قاطعته لين بحدة غير آبهة بالنتائج:

- لا تحاول تفسير أى شىء فأنا لست مهتمة أبداً بمصدر هذه الملابس!

ابتعدت عنه ووقفت تحدق فى قمم الجبال المختبئة وراء حمرة الشفق. تمنت لو تكون هذه اللحظة جالسة هناك حيث الهدوء والبعد عن الضجيج وكذب حضارة العالم. تجمعت دموع الغضب فى عينيها، غضب أثاره فشلها وخيبتها المرة.

- أنصحك يا لين بألا تثيرى أعصابى، فانت تعرفين النتائج.

استدارت المرأة حانقة ويداها على خصرها قائلة:

- أتهددنى كل لحظة بالضرب؟ هيا افعل ما فعلته بالأمس! فهذا أفضل ما يتوقع من... من متشرد حقير!

توقف رادولف عن توضيب ثيابه ونظر اليها والشرر يتطاير من عينيه.

- ألن تكفى عن التحقير بى؟ أتحاولين ارغامى على استعمال العنف معك؟

تقدم منها وأمسك بكتفيها وقال:

- سأقطع لسانك الطويل فأنا لست مستعداً لتحمل الاهانة تلو الاهانة!

هزها بعنف ولكنه لم يتماد كما فعل فى الليلة الماضية بل ضبط أعصابه وسرعان ما تركها. تحسست لين آثار يديه القويتين على كتفيها وتساءلت كم من الآلام ستتحمل قبل أن تفلت من قبضته.

- من الافضل ان تضعى ملابسك فى الدولاب لأننا قد نبقى هنا بضعة أيام.

- والى اينذهب بعد ذلك؟

تنهد رادولف وأجاب:

- لا أعلم.

يا له من تغير كبير من غجرى عنيف الى رجل يائس ومثبط العزيمة. انتقت لين كلماتها بدقة عندما تكلمت:

- أتبحث عن شخص معين؟

لم يكن رادولف على علم أنها سمعت كلام العجوز وسمعت قبل ذلك كلام أولاف. فرمقها بنظرة متسائلة:

- ما الذى يجعلك تظنين ذلك؟

www.elromancia.com

- انه التفسير الوحيد الذى يفسر سبب هذا التجوال المستمر.

- فهمت.. سأخرج بعد حوالى الساعة وأطمئنك بأن العربة محروسة جيداً فلا تحاولى الهرب.

قال رادولف ذلك بلهجة عادية كأن الموضوع ليس ذا أهمية مما أثار لين فصرخت:

- وكم ستغيب؟ لا أستطيع تحمل الوحدة! سأفتح النافذة وأملأ الدنيا صراخاً! لا لن استطيع الصمود..

- لاتكونى عصبية بهذا الشكل المسرحى فلن أغيب عنك طويلاً.

زادت ثورة المرأة وهددت:

- سأحطم النوافذ، سأحطم كل شىء!

أطلق الغجرى زفرة عميقة فأدركت لين أن عنده مايشغله كفاية ويجعله يغنى عن مشكلة جديدة تسببها له امرأة، فاستنتجت أنها اذا زادت الامر صعوبة وتعقيداً تخلى عنها وأطلق سراحها لينصرف الى حل مشكلته الاساسية.

- لقد قلت لك إننى لن أتأخر.

وجد رادولف صعوبة فى الكلام بسبب الارهاق الشديد، الذى لم تسببه ساعات القيادة الطويلة لأن بنيانه القوى يجعله بمأمن من الارهاق الجسمى، بل مشكلته المستعصية التى تشغل روحه وعقله.

وجهت لين اليه سؤالا ليس فى محله بل يهدف الى تأخير خروجه فقط:

- ألن تتناول طعاماً على الاقل؟

- ليس قبل أن أعود.

لم تكن المرأة جائعة بل حاولت بسؤالها أن تعيق ذهابه، لكنها أذعنت للأمر وجلست على كنبة تنتظر خروجه.

بدا رادولف مترددا فى الذهاب. هل هو قلق عليها؟ فشعوره بالقلق واضح على وجهه. عندما فتح الباب ليخرج ألقى عليها نصيحة أخيرة:

- لا تحاولى التصرف بسخافة يا لين لأنك لن تنجحى فى الفرار.

- سأنجح يوماً.

لما نظر اليها بعينيه الماكرتين علمت لين أنه يخطط لما سيفعله بها عند عودته وتأكدت من نياته عندما سألها بخبث:

- أواثقة أنت من النجاح؟ سأريك مدى تحملك عندما أعود!

- نعم. سأخرج من سجنك وسأحمل معى أبشع الذكريات!

أدركت لين أن لعبتها ناجحة عندما رأت زوجها يعض على شفته السفلى ويده تشدّ على مقبض الباب. ستواصل حملتها على أعاصبه فى الغد لتصل الى غايتها.

عاد رادولف الى العربة فى العاشرة فوجد لين نائمة على كنبة عريضة. استسلمت المرأة بسرعة الى النوم بعد أن وزعت ملابسها فى الخزانة وألقت نظرة فاحصة على العربة الواسعة والمرتبة. دخلت الى المطبخ المرتب وحضرت بعض الشاى ثم جلست تحتسى فنجاناً فى غرفة الجلوس قبل أن تدخل الى غرفة النوم بعد ان تأكدت من وجود الحراس اليقظين فى الخارج يرصدون تحركاتها. لابد أنهم يتلقون المال من زوجها مقابل خدماتهم، مال وفير لا تعرف مصدره...

www.elromancia.com

وقف رادولف يتأمل شعرها المتدلى كوشاح حريرى على الكتف الغض وأحس بالألم يعصر قلبه، ثم تمتم فى نفسه:

- غجرى متشرد، حثالة المجتمع...

توجه الرجل الى المرآة ينظر الى بشرته الداكنة وشعره الأسود القاتم الأشعث كنسيمات الجبال الصباحية. استدار لما سمع زوجته تتحرك فى كنبتها وتفتح عينيها لتشاهده أمامها.

عرف من اغلاقها عينيها ومن الدموع المنحبسة وراء الجفنين أنها شاهدت الرجل المتوحش، البدائى.

- عدت أخيراً.

أقترب الغجرى منها وسألها بلهجة هادئة:

- أتفضلين وجودى على البقاء وحيدة؟

كذبت لين كى تجرحه امعاناً فى ممارسة لعبة حرق الاعصاب.

- بالطبع لا! وجود شخص غير مرغوب فيه لا يشتهيه أحد!

أمسك بيدها وأجبرها على الوقوف ثم ضغط عليها بقوة.

- أنت تفقدينني أعصابى!

قاومته لين بعنف وهى ماتزال شبه نائمة، وفجأة تراجعت عندما لامست يدها الجرح فى خده.

- أتخافين من جرح بسيط كهذا؟

تناول يدها ومررها على جرحه وأضاف:

- ستتالين قريبا من الدواء نفسه لأنى احب معاملة الناس بالمثل.

أتستمر لين فى توتير أعصابه؟ لا، لن يجدى ذلك نفعا معه. عليها الرضوخ لارادته والاذعان لاوامره لتخفف من وطأة نار هذا الجحيم.

عندما رفع رأسها الى عينيه رأت من جديد الحنان يملأ نظراته، رأت رادولف الخير يطغى على رادولف الخير ويتغلب عليه مؤقتاً فى الصراع الشرس الدائر فى نفسه. وأحست أنه من واجبها مساعدة هذا الرجل كى يصل الى الأمان وتستقر شخصيته، ولكن ما السبيل إلى مساعدته؟ لربما كان تجاوبها معه كفيلا بحل المشكلة وجعله يشعر بأنه موضع اهتمام.

وأخيراً جاءت اللحظة الحاسمة فقد جذبها رادولف اليه بقسوة أتقدم على خطوة التقارب أم تحجمم عنها؟

غلبها الاستسلام قبلما تبتعد عن زوجها الذى لم يرض بالهزيمة. وجعلها تسدد الفاتورة بطريقة فظة.

بعد أن انقشعت غيوم المهانة والذل تمتمت لين:

- أكرهك وسأجعلك تدفع ثمن كل شىء غالياً فى يوم من الايام.

لم تؤثر كلماتها فى رادولف بشىء لأنها كانت موجهة الى الجانب السىء الذى تحدث عنه.

www.elromancia.com

٧ ـ بيت على الشاطئ

دام تنقل رادولف ولين من مخيم الى آخر مدة أسبوعين جابا خلالهما أنحاء واسعة من ايرلندا. قطعا الجبال والسهول، والبحيرات والانهار، والوديان والمراعى.. ولم لم يكن هاجس الفرار ماثلا فى ذهنها لاعتبرت لين نفسها سعيدة الى درجة لا توصف.

لم يقترب رادولف منها منذ أن صفعها المرة الاخيرة، حتى أنه كان ينام على كنبة ويترك لها السرير لتنام وحدها. صار يعاملها بكل لطف وعناية وان لم يخل الأمر أحياناً من كلمات جارحة تأتى رداً على زلات لسان تبدو من لين. لكن القضية لم تتعد الكلام المؤلم الفظ.

حاول الغجرى أن يظهر الجانب الحسن وبالتالى سحق شخصيته الشريرة المرعبة. وقد نجح لا فى ازالة خوف لين فحسب، بل بانشاء علاقة ود بين الاثنين. فأضحت قوته خالية من البطش وسطوته بعيدة عن الظلم. كما غاب عن لين الشعور بالأسى والمرارة اللذين رافقاها كظلها فى أيام اختطافها الاولى. ولكنها لم تكف مع ذلك عن الحديث عن الهرب فى أول فرصة تلوح لها.

وفى الحقيقة صارت لين مقتنعة تقريباً بحياتها كزوجة لغجرى

متجول. لا سيما وان رادولف لا يترك مناسبة الا ويذكرها بأن مكان المرأة هو أن تكون دائماً الى جانب زوجها. لكن ذلك لا يعنى شعوراً بالاستقرار بل كانت المرأة الشابة فى حالة انتظار وتوقع دائمين متوقعة أن عثور زوجها على من يبحث عنه سيغير مسار حياتها.

سألت لين زوجها يوماً وهما فى طريق العودة الى كيلارنى:

ـ الى متى سنظل ننتقل هكذا؟

ـ أعتقد أننا سنكون فى بيتنا بعد حوالى الأسبوعين.

أوقف رادولف السيارة الى جانب الطريق وأخرج زجاجة عصير البرتقال ليتناولا كوبين منعشين، فى حين كان تفكير لين يعمل جاهداً لاستيعاب كلمة «بيتنا». عن أى بيت يتكلم زوجها؟

ـ أتعنى أننا سنستقر فى مخيم محدد؟

قالت لين ذلك وهى تهز رأسها وتفكر بوجودها فى مخيم للغجر وبالحياة المتعبة التى تنتظرها. وبرغم ذلك فهى تقر أنها لا تتصور نفسها تعيش بدون رادولف من دون أن تعلم السبب. عادت صورة توماس الى ذهنها فى الايام الماضية لكن رادولف كان مصيباً عندما قال أنه لا يناسبها، فهو رجل طيب لكنه ليس خلاقاً مما يساهم فى زيادة الرتابة فى حياتها التى علمت من خلال تجربتهاالجديدة مدى سخافتها، وانسيابها المجرد من أى طعم ومعنى.

قطع رادولف حبل افكارها بقوله:

ـ لابد أن نتهى من رحلة الطواف هذه ونستقر.

اعترضت لين بلهجة ناعمة قريبة من التوسل:

www.elromancia.com

- لا استسيغ فكرة العيش فى مخيم، الا نستأجر منزلاً؟

رمقها بنظرة ملؤها الحيرة والتردد كأنه يخاف من البوح لها بأشياء يكتمها فى نفسه على مضض. لذلك اختار كلماته بدقة وقال بتمهل:

- أفهم من هذا انك أصبحت مقتنعة بالعيش معى؟

هربت لين من نظراته وأخذت تفكر لماذا لم تعترض على ذلك بشدة كما كانت تفعل فى السابق. وبعد أن وزنت الامور فى رأسها وتراءت لها حياتها المقبلة وما يمكن ان تعانيه فى المجتمع الغجرى من عبودية تدمر المرأة وتذلها، صاحت بأعلى صوتها:

- لا! لم اقتنع بذلك! سأنتهز أية فرصة وسأنجح فى ذلك! انت لا تستطيع مراقبتى الى الأبد، لا تستطيع أن تراقب تحركاتى لسنوات وسنوات حتى. نصبح عجوزين هرمين!

ارتفعت حدة نبرة لين حتى جفل رادولف منها وزادت:

- أرجوك دعنى أمضى فى سبيلى، أرجوك دعنى أعود الى بيتى!

بكت المرأة بمرارة وغشى كيانها اضطراب كبير فأخذت ترتعش حتى أوقعت كوب العصير على ثوبها.

تناول الغجرى الكوب من يدها وانتظر حتى استكانت، وبالفعل عادت لين إلى هدوئها السابق وتكلمت بكل واقعية:

- لنعقد اتفاقاً بيننا. تعطينى حريتى مقابل سكوتى عن حادث الاختطاف وتعهدى بألا أطلع أحداً على ما جرى.

بلعت لين ريقها لتزيل الثقل القابع فى صدرها وأعصابها الثائرة

تجعل منطقها مغلوطاً، وفكرها شارداً ومشوشاً. لم يعد شىء فى ذهنها واضحاً. وأحست برغبة فى الصراخ عندما مرت أمامها الصور متدافعة، صور الحرية والعودة إلى الوطن، صور رادولف الطاغية وسطوته القاسية تطردها صور طيبته ولطفه اللامتناهى. ودار فى أعماقها صراع قاس بين الحياة مع رادولف والحياة بدونه. فالأولى رحلة لا تنتهى بين المخيمات حيث شظف العيش، والثانية حلقة مفرغة تبحث فيها عن سعادة تائهة.

برزت الحقائق من بين غيوم عقلها المنهك. وعجزت لين عن الاختيار فلم تجد إلا صرخة صادقة تطلقها من أعماقها:

- ساعدنى يا الله!

- لين ما بك يا عزيزتى؟ بالله عليك لا تفعلى هكذا بنفسك!

لم تنبس المرأة ببنت شفه بل نظرت إلى الغجرى لا تصدق أن ما يختلج فى قلبها حقيقة. همست فى نفسها:

- لا، هذا ليس صحيحاً، لا يمكن أن يكون صحيحاً...

تكلم رادولف ثانية لكنها لم تسمع شيئاً لانشغالها بالحقائق الجديدة. سرت فى جسمها رجفة قوية ثم سقطت بين يدى زوجها.

- لين، ما بك؟ هل أنت مريضة؟

كان صوته ناعماً ينم عن قلق عميق. رفعت رأسها وكأنها تخرج من الغيبوبة، ثم حدقت فى الرجل وتساءلت عما يمكن أن يكون تصرفه لو اطلعته على ما اكتشفت لتوها. أيستقبل الخبر بفرح أم يقول متشفياً: لقد وقعت فى غرام غجرى متشرد إذن! وهكذا لن تتركينى بعد الآن يا

www.elromancia.com

امرأة لأن حبك لى يجعلك أمة خاضعة!

لن تخبره بذلك أبداً! ولن يغير الوضع الجديد من قتل رغبتها فى الهرب لأنها لا تنوى قضاء حياتها معه برغم حبها القاتل له. لن تستطيع رؤية أطفالها يترعرعون فى مخيم وسط القذارة وبعيداً عن المدرسة والبيئة الصحية المتحضرة. ستجعل العقل يسيطر على العاطفة وتحكم المنطق ليسحق الحب.

لما عادت إلى التفكير برادولف من جديد عاد التشوش والبلبلة إلى ذهنها. لقد استنتجت فى السابق أنه يملك شخصية مزدوجة وقالت أنها لو استطاعت ابقاء جانبه السىء بعيداً لاستطاعت تمضية أيام حلوة معه. وفى الحقيقة أنه كان انساناً رائعاً خلال الاسبوعين الفائتين فهو عاملها بكل رقة ولطف، حتى أنه لم يحاول تقبيلها مرة...

لقد كبح جماح غضبه لاسعادها وقدم مصلحتها على مصلحته دون أى أنانية أو حب للذات.

أى نوع من الرجال هو؟ لا تستطيع لين تحمل العيش مع رجل غامض إلى هذا الحد. وأن تكن تصرفاته الأخرى مقبولة ولائقة.

نفذ صوت رادولف من خلال أفكارها كالنور يتسلل بخجل من بين طيات الضباب:

ـ سألتك هل أنت مريضة.

ـ أنا بخير الآن.

قالت لين الحقيقة لأنها بدأت تشعر بالتحسن مع أن أفكارها مازالت مبلبلة. نظرت إلى وجهه فكادت تقسم أنه ليس غجرياً، لا

يمكن أن تكون هذه الوسامة الراقية فى غجرى...

غيرت لين الموضوع فجأة وسألته عن هوية الشخص الذى يبحث عنه. جفل رادولف لسؤالها وقال:

ـ ألم تقولى من قبل أنى أبحث عن شخص وبررت استنتاجك هذا؟

ـ قلت أن هذا هو التفسير الوحيد لتنقلك الدائم.

أطرقت لين قليلاً وزادت:

ـ سأكون صريحة معك هذه المرة.

ـ تفضلى.

ـ سمعت الرجل العجوز يتحدث إليك عن رجل لم يأت إلى المخيم وينصحك بألا تكمل البحث عنه.

ـ لم تخبرينى بذلك فى المرة السابقة.

ـ تعنى عندما قلت لك أنك تبحث عن أحد ما؟ لا فقد خفت أن تتضايق لو عرفت بأننى كنت استرق السمع.

ـ أطلعتنى الآن على شىء يضايقنى. ألم تخافى من إثارة غضبى؟

ـ لم أعدأخاف منك.

ـ قولى بصراحة يا لين، هل أنت أسعد الآن مما كنت عليه...

توقف فجأة محاولاً إيجاد الكلمات المناسبة لانهاء السؤال، لكن دفعة من الشجاعة أتت لين فأكملت عنه:

ـ مما كنت عليه عندما كنت ترغمنى على....؟

www.elromancia.com

فوجىء الغجرى لصراحة زوجته ولكنه كتم شعوره بذكاء.

- أحسنت فهذا ما كنت سأقوله.

- لست سعيدة بل راضية.

ان ترددها وعدم ثقتها بما تقول يضرب بهما المثل. فلماذا تنكر أنها كلما نظرت إلى يديه القويتين وتذكرت مدى لمساتهما الحنونة وتمنت لو يعيد الكرة؟ أهى قانعة به؟ ولم لا فهى تحبه. الحب... احتقرت نفسها لأنها وقعت فى حبائله لمجرد أنه كان ودوداً معها فى الأيام الماضية، كرهت ضعفها وسرعة ذوبانها فى بحر العاطفة.

- وهل ترضيك حياتنا هنا بهذه الطريقة حتى نصبح عجوزين هرمين؟

- سؤالك غير مجد فأنا لا أنوى قضاء حياتى معك.

سمعت لين زوجها يتنهد بدل أن يغضب كالعادة وتساءلت إذا كان سلم بالأمر الواقع واقتنع بأن المشاركة فى الحياة الزوجية تأتى نتيجة الرضى المتبادل لا القهر والإزلال والإكراه.

انطلق رادولف بالسيارة صامتاً وملامحه قاسية كالحجر، ينظر أمامه كأن عينيه متجمدتان لا حياة فيهما. وغرقت لين بدورها فى التفكير بمشاكلها وبالحل الأنسب الذى يخرجها من هذا المأزق.

توقف الغجرى فى أحد المخيمات لكنه لم يمكث هناك سوى بضع دقائق. وأبلغ زوجته فى صوت هادىء أنهما سيمضيان الليل فى منزل يملكه صديق له يقع على شاطىء البحر.

- أهناك أحد فى المنزل؟

- المنزل خال فهو مخصص لقضاء العطلة الصيفية. أنا واثق أنه سيعجبك كثيراً فهو مجهز بكل شىء برغم بعده عن العمران.

- أتعنى أن المتزل منعزل؟

- يبدو أنك فكرت بالهرب يا حلوتى! لم أكن لأصطحبك إلى هناك لو لم يكن المنزل منعزلاً تمام الانعزال عن بقية العالم.

- أيستعمل المنزل لأغراض سياحية؟ فالبعض يحب تمضية وقت فراغه بعيداً عن الناس.

ضحك رادولف وعلق:

- استعملت بداية بارعة لاخفاء خيبتك.

- ماذا تعنى؟

- لا تدعى الغباء يا لين. اعتقدت أن وجودك فى منزل على شاطىء البحر سيسهل الفرار، ففى المخيمات هناك من يراقبك ليلاً نهاراً.

- الفرار من مخيم للغجر مستحيل، أما بالنسبة لاستنتاجاتك الأخرى فأنت مخطىء لأنى صرت أعرفك وأدرك أنك متيقظ دائماً لاحباط أية محاولة أقوم بها للافلات. لكننى فقط أستغرب وجود منزل مخصص للعطلة فى مكان منعزل كما فهمت من كلامك.

- لقد بنى صديقى هذا المنزل منذ أربع سنوات حتى يهرب من همومه ويرتاح هناك من عناء أعماله المتراكمة.

عجبت لين لكلام زوجها. فكيف يتوصل غجرى متشرد إلى مصادقة شخص ثرى يبنى منزلاً لمجرد حبه الاختلاء بنفسه!

www.elromancia.com

ـ لابد أن صديقك ثرى جداً! أنا... لم أعد أفهم شيئاً. آه لو تخبرنى المزيد عن نفسك فلربما اختلفت الأمور بيننا.

ضغط رادولف على فرامل السيارة حتى كاد رأس لين يرتطم بالزجاج الأمامى. نظر إليها بدهشة وسألها:

ـ ماذا تعنين بمختلفة؟

هزت المرأة رأسها عاجزة:

ـ لا أستطيع التفسير.

وبالفعل لم تكن تستطيع التوضيح لأنها هى نفسها لا تعلم ماذا تقصد تماماً من كلامها.

انطلق الغجرى بالسيارة، وقاد لساعات فى طرق منعزلة تتعرج بين الهضاب الخضراء حتى انعطف أخيراً فى ممر ضيق لا يعرفه أحد وليس موجوداً على الخريطة كما أبلغ زوجته.

استمر سيرهما فى هذا المكان النائى حتى وصلا إلى طريق صخرى فأخذت السيارة تقفز على الحجارة وراكباها يعانيان صعوبة بالغة حتى بلغا أخيراً بوابة عتيقة منحوتة فى الحجر تدل على أن المنزل بنى على انقاض بناء قديم. وخلف البوابة والسور المحيط بالأرض نمت أشجار خضراء من مختلف الأنواع، وتوزعت أزهار وورود زاهية هنا وهناك تضفى على الجو رونقاً وضياء.

كانت أشعة الشمس ماتزال ساطعة ترسل ألوانها على المنزل الأبيض المحاط ببساط من العشب الأخضر وسجادة من الأزهار.

انعقد لسان لين من الدهشة وصعقت لجمال هذه البقعة الطاهرة التى لم تدنس عذريتها مكائد الإنسان.

ـ آه ما أروع هذا المكان!

أجالت طرفها بين الجبال الشاهقة والبحر المترامى الأطراف فى زرقة يخالطها بياض الزبد. عجيبة هى طبيعة أيرلندا فى جمعها بين ارتفاع الجبال ووداعة البحر فى لوحة واحدة.

ـ كيف وصل صديقك إلى مكان كهذا؟

مرت لحظات تردد قبل أن يجيب زوجها:

ـ إن عائلته تملك هذه الأرض منذ عدة أجيال وقد أقامت فيها مزرعة كبيرة.

أشار بيده إلى بقايا البناء المتهدم وقال:

ـ كان هذا بيتاً لعمال المزرعة. وجد صديقى المكان مناسباً لبناء منزل يستريح فيه عندما يحتاج إلى الابتعاد عن عالم الأعمال والضجيج.

ـ وماذا يعمل صديقك؟

ـ إنه ثرى لديه أملاك كثيرة.

دخل الزوجان إلى المنزل الفخم حيث الأثاث الوثير والسجاد العجمى والستائر الحريرية الفاخرة. وأعجبت لين بالثريات والكريستال والآنية الفضية وتماثيل العاج والبرونز.

كما لفت نظرها الديكور الذواق الذى نظمت على أساسه حجرة الصالون، ثم هزت رأسها مدركة أن هذا المكان ليس لغجرى، وظنت أن

www.elromancia.com

رادولف ليس صديقاً لمالكه كما ادعى، بل هو يدخل إليه خلسة عندما يعلم أن أصحابه غائبون. ولكن من أين أتى بالمفتاح؟ الجواب على ذلك ليس مستعصياً لأن رادولف لص محترف.

أعادها صوت رادولف إلى الواقع عندما بادرها بالسؤال:

- بماذا تفكرين؟

- كنت أفكر بكل هذا المال المهدور على بيت شبه مهجور.

لم يقنع جواب لين زوجها الماكر فصحح قولها:

- لا يا عزيزتي، كنت تقولين في نفسك كيف يمكن لغجري حقير أن يتعرف إلى أصدقاء أثرياء كصاحب هذا المنزل؟

مرة أخرى عادت مسحة المرارة إلى صوت رادولف. ولكن لين لم تشعر بالشماتة. لذلك بل انزعجت وحاولت تغيير اتجاه الحديث.

بعد ذلك أراها غرف النوم المرتبة والنظيفة كما دخلا إلى المطبخ الواسع والمجهز بأحدث الوسائل المعيشية وأثمنها.

- لابد أن أحداً يأتي إلى هنا باستمرار حتى يبقى المنزل نظيفاً.

هز رادولف برأسه موافقاً وهو يشير إلى بقعة خضراء لا تبعد كثيراً عن البيت.

- هناك مزرعة صغيرة خلف تلك الأشجار تملكها أرملة في الخمسين كلفها صديقي المجيء يومياً للاهتمام بالمنزل.

- يومياً؟

- ستأتي في الصباح الباكر وهكذا ستتأكدين من أني لست متسللاً إلى هذا البيت.

احمر وجه لين لملاحظاته الجارحة والصائبة لكنها رأت في مجيء هذه المرأة عملاً يحتمل أن يساعدها على الهرب.

- لا تبني آمالاً كاذبة فالسيدة وايت تحبني كثيراً وتنفذ أوامري.

- يبدو أن لديك الكثير من المحبين.

تجاهل الغجري ملاحظة زوجته وقال:

- المياه ساخنة الآن إذا كنت ترغبين في أخذ حمام. لقد أخبرت السيدة وايت بمجيئنا وأمرتها بتسخين الماء.

حدقت لين فيه بذهول مطبق.

- أخبرت السيدة؟.. ولكن متى وكيف فعلت ذلك؟

ضحك رادولف وأجاب:

- طلبت إلى أحدهم في آخر مخيم توقفنا فيه أن يتصل بها ويخبرها.

أمضت لين وقتاً طويلاً في غمرة المياه الساخنة. ولما عادت إلى غرفة النوم كانت هادئة ومرتاحة الأعصاب.

جلس رادولف يتأمل جمال زوجته ونظر إلى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال:

- يبدو أنك تمتعت كثيراً بالماء لأنك أمضيت ما يقارب نصف الساعة في الحمام.

- آسفة لتأخري.

www.elromancia.com

- لا عليك يا طفلتى فأنا كنت مشغولاً باجراء بعض المكالمات الهاتفية.

مخابرات هاتفية... هذا يعنى أن ثمة هاتفاً فى المنزل. حاولت المرأة أن تتكلم بلهجة عادية حتى لا يتنبه زوجها لحيلتها.

- ألا يضايق صديقك استعمالك لهاتفه؟

- لا أبداً.

دخل رادولف بدوره إلى الحمام تحت أنظار زوجته المتسائلة عن نوعية مكالماته التى ليست بالطبع موجهة إلى مخيمات الفجر، لأن هذه الأمكنة لا تعرف الهاتف.

انتظرت بضع دقائق حتى سمعت صوت المياه، ثم خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها وشرعت تبحث عن مكان الهاتف دون جدوى. أخفاه رادولف الداهية لإدراكه أن زوجته لن تكون غبية وتدع فرصة استعمال الهاتف تفلت من يدها وتضيع هباء.

تخلت لين عن البحث وجلست تفكر فى طريقة حديث زوجها عن الهاتف، وكأنه يتعمد خلق مواقف تجعلها تطرح على نفسها المزيد من الأسئلة حول حقيقته. تمنت لو تجد سبيلا كى تقنعه بالإجابة على التساؤلات الدائرة فى ذهنها والتى تسبب لها حيرة وانفعالاً عظيمين.

بماذا تشك المرأة؟ ما هو التفسير الشافى لكل الغموض الذى يحيط بزوجها؟ من المسلم به أن رادولف غجرى ومع ذلك لا يمكنها انكار بعض الصفات التى تجعل منه شبيهاً بأى رجل مثقف لا بل أرستقراطى نبيل، سواء فى حديثه أم فى تصرفاته. ففى الفترة الأخيرة عندما جالا فى البلاد، انتفت عنه كل علامة تشير إلى أنه

غجرى. حتى ملامحه تغيرت وارتدى ثياباً عادية تختلف عن الزى شبه «الفولكلورى» الذى كان غالباً على هندامه فى السابق.

لكن، لماذا هذا التبدل أو لماذا عمد رادولف فى بداية تعارفهما إلى كسب عدائها؟ لماذا!... لماذا! أسئلة لا تنتهى! يضاف إليها هذا المنزل الفخم قطعة جديدة فى الأحجية. مادام من غير المعقول أن يكون لغجرى صديق حميم بهذا الثراء يعهد إليه بمفاتيح بيته ويعطيه حرية التصرف المطلقة سيما وأن رادولف بدا معتاداً على المجىء إلى المكان من خلال معرفته كل التفاصيل المتعلقة بالأثاث وبتاريخ المنزل وظروف تشييده... يضاف إلى ذلك السلطة التى يستطيع بموجبها أن يأمر الأرملة بتحضير البيت وتنظيفه استعداداً لحضوره.

فى هذه اللحظة دخل رادولف الغرفة مرتدياً لباس نوم أنيقاً يتناقض مع شعره غير الممشط ويعطيه شكلا فريدا يجمع بين الأناقة والطبيعة البدائية... لا يقال عن رادولف إلا أنه طائر يغرد خارج سربه!

عرف الغجرى ما أثاره مظهره فى نفس زوجته فقال معتذراً:

- آسف لمظهرى، ولكنى سأتحسن مع الوقت إذا اهتممت أكثر بالتفاصيل.

- لا ضرورة للسخرية. أعتقد بأننى أشعر بالبرد، فالجو ليس دافئاً كفاية هنا؟

سارع إلى تشغيل جهاز التكييف. وعلى الفور غمر المكان دفء عارم. بعد ذلك عاد رادولف إلى غرفة النوم وفتح دولاب الثياب.

- ستجدين ثيابك وحقيبتك هنا.

استدار وأكمل:

www.elromancia.com

- أظن أنى رأيت بين ملابسك فستاناً طويلاً.

- ماذا عن الفستان؟

- أريدك أن ترتديه الليلة.

مرر نظراته الشغوفة على وجهها وأكمل:

- سنتناول العشاء بكامل أناقتنا كأناس متمدنين.

عدلت المرأة عن الاعتراض لأن فكرة ارتداء ثوب أنيق والجلوس إلى طاولة لتناول الطعام محببة بعد كل هذه الفترة البوهيمية، حيث تخلت مرغمة عن مبادئها المتعلقة بالنظافة والشكليات.

منحها رادولف احدى بسماته قبل أن يقول:

- أرى أن اقتراحى أعجبك. أخرجى الفستان إياه لأراه.

فعلت لين كما أمرها وأخذت تتمشى أمامه فى الثوب الأصفر الطويل. بل على العكس قالت بعد أن أحضرت فستاناً آخر ذا لون أرجوانى:

- ما رأيك بهذا؟

أقترب الغجرى من زوجته فأحست بالرعشة تعتريها وكأن فى الرجل قوة مغناطيسية غريبة يزيد منها طبعه المتكبر. احمرت وجنتا المرأة وثقل تنفسها وفى ذهنها فكرة واحدة: حبها لرادولف. مع اقتراب رادولف منها أكثر زادت دقات قلبها أكثر فأكثر. وعلمت أنه لو أراد ضمها إلى صدره لما أحجمت بل لرحبت بذلك بكل جوارحها. لكن زوجها خيب آمالها واكتفى بطبع قبلة حنونة صادقة على جبينها.

٨ ـ مشاعر متوقدة

جلس رادولف ولين متقابلين إلى مائدة مضاءة بالشموع فى شمعدان فضى، ومزينة بمزهرية مليئة بورود حمراء. وعلى طرف المائدة وضع إناء ملئ بمختلف أنواع الفاكهة. أما المفرش فأبيض كالثلج تضيئه السكاكين والشوك الفضية.

جلست لين فى فستانها الأصفر سعيدة كما لم تكن يوماً منذ أن التقت رادولف، وهى تعلم أن هذه السعادة لن تعمر طويلاً.

فالأمسية ليست إلا واحة وارفة فى صحراء حياتها مع زوجها، والتى تنوى الخروج منها برغم كل الاعتبارات الأخرى وأهمها... حبها للغجرى.

تمكن رادولف بطريقة ما من الدخول إلى هذا المنزل الذى يحوى فى ما يحويه، حوضاً للسباحة فى قاعة مقفلة مكيفة، وملعبا لكرة المضرب فى القاعة نفسها، كما أقيمت فى الجهة الخلفية بحيرة اصطناعية صغيرة لاكمال اللوحة الفنية خاصة وأنها تطل على الهضاب الخضراء الحالمة.

قررت المرأة الشابة نسيان شكوكها لتمضى وقتاً ممتعاً فى هذا

www.elromancia.com

المكان الذى اعتبرته أكثر شاعرية من كل ما أبصرت عيناها. فلم تستغل الفرصة وتتذوق حلاوة كل دقيقة تمر بدلاً من أن تشغل فكرها فى ما لن تستطيع توضيحه؟

من جهته ارتدى رادولف بزة رسمية سوداء وتحتها قميص أبيض يزيده اشراقاً لون بشرته السمراء، لكنه لم يبد منزعجاً من لباسه هذا أو غير معتاد عليه.

تدخل صوته معلقاً بعذوبة:

- أنت هادئة كثيراً يا عزيزتى.

- إنى أتمتع بهذه الأمسية اللطيفة.

- وترتدين بالطبع أن تطرحى الكثير من الأسئلة. أنت أكبر امرأة عاقلة رأيتها فى حياتى.

- وهل تريدنى أن أضع كل ثقتى بك؟ ماذا تفعل لو كنت مكانى؟

تجاهل رادولف سؤالها وأهتم بصب الكافيار الفاخر الذى وجده فى خزانة مليئة بالمعلبات على اختلافها. وبعد أن انتهى قال:

- لماذا لا تطرحين على بعضا من تلك الأسئلة المقلقة؟

- ومن قال إنها أسئلة مقلقة؟

- ذلك يقرأ على وجهك يا عزيزتى. فلنقل أنك فى حيرة، وسبب الحيرة أشياء كثيرة حدثت فى الفترة الأخيرة.

- أشياء لا تحصى ولا تعد.

توقفت لين لتتذوق بعض الكافيار ثم أضافت:

- أتعنى أنك مستعد للإجابة على الأسئلة، فأنت لم تخرج عن تكتمك حتى الآن؟

- ليس فى الأمر تكتم بل عدم ضرورة للبوح بكل الأسرار.

كان يحدق فيها ووهج نار الشموع يزيد من سحر وجهها وجماله. أعادت إليها نظراته ذكرى لقائهما الثانى فى الغابة عند ما جاء على حصانه وبدا مسحوراً بجمالها. كان فى الحقيقة مختلفاً وقتها عما رأته فيه فى اللقاء الأول.

- وهذه الضرورة أصبحت متوافرة الآن!

وجف قلبها إذ أدركت بحدس ما إنها على وشك اكتشاف أمر خطير كفيل بجلب السعادة الدائمة. اختلج فى نفسها شعور غريب تلاعب بانفعالاتها وجعلها فى الوقت نفسه تقتنع بأنها لو عرفت كيف تعالج الوضع الجديد الذى سيخلقه رادولف لما عاد زواجها منه تلك المأساة التى بدأت عند اختطافها وإرغامها على عقد زواج غجرى لا تؤمن كثيراً بصحته أو شرعيته.

أجاب على سؤالها وكادت تتولى المهمة عنه عيناه الحزينتان:

- من المفيد لنا نحن الاثنين أن أوضح لك بعض الأمور التى أوقعتك فى مغالطات جمة.

لاحظت المرأة الحزن فى عينى زوجها وتمنت لو تستطيع فعل أى شىء لتمحو هذه المسحة الأليمة من نفس من تحب. إزاء سكونها أكمل الغجرى:

- بالرغم من ذلك أفضل يا عزيزتى ألا تطرحى أسئلتك الآن بل

www.elromancia.com

لندع الأمور تتكشف تلقائياً، وذلك بات قريباً.

هز رادولف رأسه وتجهم وجهه وبدت عليه علامات القلق والتردد عندما قال بصوت خافت:

- نما فى داخلى إحساس بأن نظرتك إلىّ تغيرت يا لين، ولكنى لست أكيداً... لا، لا أجرؤ...

اقتحمت كلماته كالسهام أعماق لين واختلطت عليها الأمور إذ لم تفهم ما قاله زوجها. ليس أكيداً... وبالتالى لا يجرؤ على مصارحتها بما يريدها أن تعلم عنه. أحست ليس بأن فرصة العثور على السعادة باتت وهماً وبأنها لم تخلق لتعيش مع هذا الرجل تحت سقف واحد. ولكن هل هى واثقة تماماً من رغبتها فى العيش معه؟ مرة جديدة رأت مستقبلها قاتماً وفارغاً إذا تخلت عن رادولف. ومن جهة أخرى هى لا تستوعب فكرة الحياة غير المستقرة التى يعيشها هؤلاء الغجر. نظرت إلى زوجها متوسلة وتمتمت:

- أرجوك يا رادولف، أطلعنى على الخبايا، فأنا زوجتك ويحق لى أن أعرف شيئاً عنك.

هز الغجرى برأسه مرافقاً بدون أن يبدر منه ما يرضى فضول زوجته بل قال:

- لنركز اهتمامنا الآن على وجبة العشاء سيما وأنها الأولى لنا فى مثل هذا المكان الرائع.

لم تجد ابتسامة رادولف فى إزالة خيبة زوجته لأنه تهرب من الموضوع. والألم أصبح الآن أشد وقعاً منه فى الماضى كونها صارت

أسيرة حب هذا الرجل، وأضحت متشوقة لكشف حقيقته.

بعد الكافيار جاء دور شرائح اللحم المشوى التى حضرها الزوجان فى المطبخ الكبير بعد أن جلباها من الثلاجة الكبيرة المحتوية على الكثير من اللحوم وأنواع الطيور الشهية. وقد برر رادولف وجود هذه الأطعمة بوجود السيدة وايت الأرملة الطيبة التى تهتم بشؤون المنزل.

- أنت تتعب السيدة وايت بطلباتك المتعددة يا رادولف.

- السيدة وايت راضية فهى تجد فى الأمر تسلية تنسيها وحدتها. كما أننا بحاجة لهذا الترف بعد طول التنقل من مخيم لآخر.

- ولكنك تعشق حياة الغجر، أليس كذلك؟

- العادة تسهل كل شىء وتجعل المستحيل كعقولاً. ولا أخفى عليك سراً إذا قلت أنى أحب التمتع بالحرية التى توفرها حياتنا الغجرية.

- ولكن حياتكم خاوية إذ لا عمل فيها ولا نشاط.

- ليس كل الغجر بالضرورة عاطلين عن العمل. فهم يصنعون بعض أدوات الطبخ ويتعاطون التنجيم وما إلى ذلك.

انتهى الزوجان من تناول الطعام فسأل الغجرى:

- هل أعجبك الطعام؟

- كان رائعاً، رائعاً جداً.

طغى على الجو مسحة من السحر والود. ولم تفكر لين بالمشاكل التى تفسد عليها روعة الساعة بل تركتها جانباً لتنعم بهنيهات فرح نادرة.

تناولا القهوة ثم اقترح رادولف أن يخرجا لتنشق الهواء المنعش.

www.elromancia.com

وافقت لين على الفكرة وأن اعتراها على الأثر بعض الخجل.

سحرت لين بجمال الطبيعة وبابتسامة رادولف السخية. الآن أدركت مدى وسامته وأنها صارت تنظر إليه كرجل مهذب متحضر لا كفجرى متشرد فى هذه الليلة رأت لين مملكة رسمتها فى خيالها، مملكة تعيش فيها مع فارس أحلامها وفى مكان لا تحققه إلا الأحلام... ولكن حلول الغد سينهى هذا الحلم...

تجولا فى الحديقة والمراعى المحيطة بالمنزل، يداعبهما نسيم منعش يحمل معه رائحة البحر الممتزجة بعطر الأزهار.

تنشقت لين الهواء بنهم وأفكارها محاطة بالضباب بفعل الجو الغامض وهى فرحة بذلك لأنه يحملها بعيداً عن همومها فى سمفونية عذبة الألحان.

سألها رادولف كى تخرج عن صمتها:

ـ هل أنت هادئة المزاج الآن؟

ـ نعم.

ـ البحر هادىء الليلة ويشجع على السباحة.

ـ أنت تسبح إذن.

أجاب رادولف متعجباً لسؤالها:

ـ بالطبع.

لم تسأله لين هذه المرة كيف يجيد السباحة مع أن الفجر لا يجيدونها عادة، بل تجاوزت فضولها كى لا تفسد النزهة الليلة.

ـ ما رأيك يا عزيزتى بالصعود نحو التلال؟

ـ أتعرف الطريق جيداً؟

ـ لا تقلقى فأنا أعرف المنطقة وأستطيع السير فى مسالكها مغمض العينين.

أتبدأ لين بطرح الأسئلة حول سبب معرفته التامة بالمكان؟ لا، فلا حاجة لافساد السهرة الرائعة حتى وإن كان انسجامها مصطنعاً بعض الشىء إذ يتغاضى كلاهما عن الحقيقة.

اتجها نحو التلال فى طريق مغطى بالعشب الكثيف. والقمر بدأ يختبىء خلف بعض الغيوم فصار الضوء مصحوباً بظلال رقراقة تتراقص على البساط الأخضر الفسيح.

وضع رادولف يد زوجته فى يده فغمر الدفء جسمها وأصبح كل شىء جميلاً جمال هذا الحلم المجنون. حبذا لو ينقلب الحلم حقيقة ويصبح فرح هذه اللحظات سعادة دائمة.

تفرقت الغيوم فعاد القمر إلى جود عطائه يرمى أنوراه على قمم التلال وسفوحها فتنعكس على حبيبات الندى التى تكلل رؤوس الأشجار وتخالط وريقات العشب. والنسيم الملىء بالشذى يشترك مع الطيور الليلية فى أداء أبدع الألحان وأروعها.

فى الطريق إلى البيت تساءلت لين عما إذا كانت الحاجة التى تدعوها للبقاء إلى جانبه هى وليدة اللحظة وستزول متى انفصلت. والأكيد الآن أنها ترغب فى الإرتماء بين ذراعيه تدفىء قلبها بحرارة اللهفة والهوى.

www.elromancia.com

وصلا إلى المنزل ورنين الهاتف يملأ أرجاءه. فهرع رادولف ليجيب. بقيت لين فى الخارج تتأمل الهضاب الواسعة والبحر الرحب تتكسر أمواجه على الشاطىء وتطاير حبات الماء لآلىء تستحم بنور القمر. وفجأة أدركت أن فى وسعها الهرب والعثور على أكثر من مخبأ فى هذه المنطقة الشاسعة بحيث يستحيل على الغجرى أن يجدها فى الظلام. معطفها معها وكذلك الماء، فما عليها إلا أن تركض وتنال حريتها... الحرية أصبحت على قاب قوسين أو أدنى منها، فلماذا لا تفعل؟

مازال رادولف يتكلم على الهاتف ويبدو أنه لن ينتهى من المكالمة بسرعة. من على الطرف الآخر من الخط؟

لو كانت المكالمة موجهة لصاحب المنزل لانتهت بسرعة. المكالمة هى لرادولف إذن.

أصغت المرأة بانتباه ولكنها لم تتمكن من الفهم لأن زوجها كان يتحدث بصوت منخفض. كيف ارتكب رادولف مثل هذه الغلطة وتركها حرة بدون حراسة، وقدم لها بذلك فرصة الفرار على طبق من فضة!

وقفت لين كالبلهاء مشدوهة لا تدرى ماذا تفعل. الهرب متاح أمامها على مصراعيه فلماذا لا تستغل الفرصة؟ لماذا التردد؟

أخيراً ابتسمت والتمعت عيناها وعلمت أن هذه الليلة الشاعرية يجب أن تستمر حتى آخر فصولها. ألقت نظرة على العالم فى الخارج ثم دخلت وأقفلت الباب بهدوء.

استدارت لين لتجد زوجها واقفاً يحدق فيها وتملأ وجهه علامات الاستغراب والدهشة. وقفت المرأة جامدة لا تقوى على الحراك إذ

علمت نوايا زوجها. ولكنها لا تأبه بها لأنها مصممة على خوض غمار كل ما تقدمه هذه الليلة «الاستثنائية». وقفا ينظران إلى بعضهما حيث عجز الكلام عن التعبير عما يختلج فى النفس ويفيض فى القلب. أخيراً استطاع الرجل أن ينطق:

- يا حلوتى...

مد يده إلى زوجته وإمارات الفرح تقفز من عينيه وتهذب من قساوة ملامحه البدائية ذات الجمال الوحشى النقى.

تجاوبت لين لدعوته بابتسامة رقيقة كفيلة بإذابة الصخر وأكثر القلوب تحجراً. ومدت يدها بخجل إلى يد زوجها.

- كان بوسعك الهرب بسهولة... ولو فعلت لما تمكنت من العثور عليك أبداً.

قال رادولف ذلك وهو يكاد لا يصدق أن لين أضاعت هذه الفرصة السانحة وفضلت البقاء معه على استعادة الحرية.

تحولت عبارات الدهشة فى عينيه إلى حنان فائض وملأ قلبها شعور واحد: الحب. حب حملها بعيداً عن الهموم الحياتية، وأحاسيس رفعتها من مستوى المادة إلى مستوى الشعور.

- لين... ما سبب الذى يجرى بيننا الآن؟

وأضاف متراجعاً:

- لا أهمية لذلك فيكفينا أن ما يجرى رائع...

قاطعة رنين الهاتف فوقف متردداً، أيجيب أم يستجيب لرغبته

www.elromancia.com

بالبقاء قرب زوجته؟ كرهت لين صوت الهاتف وتمنت لو يخرس حتى لا يسلبها رادولف. وكم كان سرورها عظيماً عندما قرر الغجرى تركه يرن والبقاء معها.

- فليذهب الهاتف إلى الجحيم لأنى لست مستعداً لتركك الآن.

تنفست المرأة الصعداء وزادها قراره ثقة بنفسها وبمكانتها عنده.

هل فهم رادولف أنها غارقة فى حبه حتى أذنيها؟ هل أدرك أن سلطته عليها لم يعد سببها السطوة بقدر ما صار الحب؟

- رادولف... اسمك غريب ولكنه يعجبنى.

- اسمى ايرلندى قديم جداً.

- أليس اسماً غجرياً؟

- لا.

تردد رادولف طويلاً قبل أن يكمل:

- فى الحقيقة هو اسم كان يطلقه نبلاء ايرلندا على أولادهم.

- وكيف اتفق أن غجرياً حصل على اسم نبيل ايرلندى.

- لا أعتقد أن فى ذلك جريمة.

دفعها الفضول إلى مزيد من الأسئلة.

- وهل هناك الكثير من رجال الغجر يحملون نفس الاسم؟

- أظن أنى الوحيد الذى يحمله.

- لم تذكر لى شيئاً عن والديك يا رادولف.

قال وقد ملأ صوته حزن عميق:

- كلاهما ميتان.

غرقت لين فى ذراعيه أكثر.

- أخبرنى عن أمك.

شعرت وكأنه ارتجف فجأة:

- ماتت أمى وهى تضعنى.

- آه! أن هذا الأمر مؤسف حقاً.

لم ينجح رادولف عندما علق على كلامها فى اخفاء الأسى من نبرته.

- إن موتها المبكر لم يشعرنى بفراغ لفقدانها، فلو ماتت وأنا فتى يافع مثلاً لكنت أصبت بحزن أكبر.

- أنت وحيد فى هذه الدنيا إذن.

وكيف تخيلت أننى وحيد فى هذه الدنيا؟

- ألديك اخوة أو اخوات؟

لم يجب الغجرى على سؤالها مباشرة بل اكتفى بالقول:

- كنت أعتبر نفسى وحيداً حتى تزوجت منك.

- أنت لم تجب على سؤالى.

- حسناً يا عزيزتى، لى أخ واحد.

- أنى أحسدك على ذلك. أين يعيش أخوك؟

www.elromancia.com

- فى أحد مخيمات الغجر.

- ألا تراه أبداً؟

أجاب رادولف بحدة وكأن الموضوع بات مزعجاً:

- لم أره منذ مدة طويلة. كفانا كلاماً الآن ولنخلد إلى النوم.

- لست بحاجة للنوم الآن.

قالت ذلك وأكملت بسرعة حتى تمنعه من التعليق:

- للأسماء القديمة معانٍ فما معنى رادولف؟

- أخشى أن لا يعجبك معناه، فكلمة رادولف تعنى الذئب السريع.

لقد كان الغجرى بالفعل ذئباً سريعاً عندما لحقها على حصانه واختطفها. نظرت لين إلى الجرح فرأت أثره واضحاً على خده وخشيت ألا يزول أبداً.

- أعتقد أن اسمك مخيف قليلاً.

- لا أنوى أخافتك الآن لأنى أريد أن أنام.

طبع قبلة ناعمة على جبينها وأطفأ النور ضاماً إياها بين ذراعيه. وما كادت تمر دقيقة حتى غط فى سبات هانىء وعميق.

أفاق الزوجان باكراً وجلسا على الشرفة الواسعة يتناولان طعام الفطور. وبعد قليل رن جرس الهاتف، هب رادولف من كرسيه معلقاً:

- لاشك أنها المكالمة التى كان يجب أن أجيب عليها بالأمس. أكملى فطورك يا عزيزتى فلن أغيب كثيراً.

عاد رادولف بعد قليل متجهم الوجه كأن حادثاً كبيراً قد وقع فسألته زوجته قلقلة:

- ما الأمر؟ هل هناك ما يقلق؟

- لا شىء يا لين.

- ولكن كيف تتلقى مكالمات ولا أحد يعلم بوجودنا هنا؟

- أنت مخطئة فى تكهناتك بدليل أننى تلقيت مخابرة بالأمس.

- مخابرة من الأشباح على ما أظن! لماذا تحيط نفسك بهذه الهالة من الغموض وبهذا الحجاب من الأسرار؟ أشعر بنفسى إزاء ذلك انسانة غريبة لا زوجة!

لم تلحظ المرأة أن عينى زوجها الغاضبتين تدلان على عدم رغبته فى الكلام وعلى مزاجه المعكر، بل دفعها قلقها عليه إلى المزيد من الالحاح فقال الغجرى بحدة:

- ألن تكفى عن الأسئلة السخيفة؟

بدأت الأفكار السوداء تلعب فى رأسها من جديد. أيكون سبب تكتمه الشديد حيال اتصالاته نشاطات غير مشروعة يقوم بها؟ وقد تكون هذه النشاطات مصدر المال الوفير الذى يملكه والذى يخوله القيام برحلات طويلة والانفاق على ثيابه الغالية. كما هناك الحصان الأصيل الذى امتطاه فى الغابة، ووجوده فى هذه الدار الفخمة... أمن المعقول أن يكون المنزل ملكاً له وهو مجرد غجرى! أسئلة لا تعرف لها جواباً واحداً...

www.elromancia.com

كانت غارقة فى أفكارها فانتشلها صوت زوجها:

- أنا مضطر للخروج يا لين. أتعديننى بأنك لن ترحلى؟

ضربت لين الأرض بقدمها وقالت بإصرار:

- سأرافقك!

رأت الرفض القاطع فى عينيه. ثم هدأت بعد أن خطرت لها من جديد فكرة الفرار. وبرغم بزوغ فجر الحب فى قلبها، فهى امرأة تنتمى إلى محيط اجتماعى مختلف تماماً عن هذه البيئة الفجرية. فالحب مهما قوى وعمق لا يستطيع أن يغير من واقع الحال شيئاً ويجعلها تندمج فى حياة رادولف وقومه، فجذوته لابد ستخبو مع الوقت ومع اصطدامها بمرارة الواقع الذى تعيشه.

احتاجت لين إلى شجاعة فائقة لتحبس دموعها. ولكن شجاعتها انهارت فجأة عندما أعاد عليها زوجها السؤال نفسه.

- أتعديننى بأنك لن ترحلى؟

أمام ترددها لم يجد الفجرى حلاً سوى حبسها فى غرفة النوم. وفى الوقت الذى سمعت فيه لين صوت المفتاح يدور فى القفل نظرت صوب النافذة. غلطة جديدة ارتكبها رادولف بسبب انشغاله وقلقه الشديدين. ما عليها الآن سوى انتظار رحيله لتخرج بكل سهولة من النافذة. فالبيت من طابق واحد ولا خطر من التسلل عبرها. لكن لين لم تترو وتنتظر ذهاب زوجها فسرعان ما ارتدت معطفها وأخذت حقيبة يدها ثم فتحت النافذة وأصبحت فى الخارج.

كانت أشعة الشمس ساطعة والبحر ساكناً والطبيعة هادئة. ولم

تستطع لين محو ذكرى التفاصيل الحلوة التى تسربت فى الليل الفائت لتضىء ظلام حياتها. عاد كل شىء الآن إلى سابق عهده. وها هى تنفذ عملية الفرار التى غابت عن فكرها فى ساعات السعادة الماضية.

آه لو كان رادولف رجلاً عادياً كغيره من الرجال! رجل يشغل وظيفة محترمة ويهتم بتأمين الرعاية والحنان لزوجته وأولاده...

انهمرت الدموع من عينيها وكادت انفعالاتها تقودها إلى العدول عن الهرب والمغامرة فى البقاء زوجة لهذا الفجرى الذى أحبته. لكن الغلبة كانت فى النهاية للعقل والمنطق. فتابعت المرأة طريقها بين شجيرات الحديقة لتجد منفذاً يقودها إلى الطريق العام. وبينما هى تختبىء بين الشجيرات سمعت رنين الهاتف فى المنزل ووقع قدمى رادولف يهرع للاجابة. عندها دفعها حدسها للعودة إلى المنزل فجلست القرفصاء تحت نافذة غرفة الجلوس منصته إلى الحديث.

- ... أحسنت يا أولاف أقلت أنه أت إلى هنا؟ أخيراً سأتمكن من...

لم تستطع لين فهم بقية الجملة بل سمعت:

- كنت يائساً يا صديقى ومتأكداً من أن الأمر سينتهى به فى السجن. لو أستطيع التحدث واقناعه...

وضاعت الكلمات من جديد فجنت لين من الغضب. كادت تتوصل إلى معرفة الحقيقة لولا حظها السىء. وفجأة سمعت صوت زوجها يقول لأولاف:

- إذن لا حاجة لتحركى من هنا الآن. لقد اتصل بى راوول منذ بضع دقائق وأبلغنى أن بوريل كان فى مخيم روجنترى فى السهل

www.elromancia.com

المجاور، فقررت الذهاب لملاقاته هناك. أما الآن وقد أكدت لى أنه آت إلى هنا فسأنتظره وأفاجئه.

توقف رادولف مفسحاً المجال لصديقه بالكلام. وتمنت لين لو تسمع ما يقوله الغجرى الكهل لزوجها الذى عاد إلى الكلام بصوت منخفض فلم تتمكن المرأة إلا سماع بعض الجمل غير المترابطة.

- أرجو ألا يعلم بوجودى هنا... جاء مرة مع فتاته... صحيح وإلا لما عرفت... لا أعرف كيف أرد لك الجميل يا أولاف.

تساءلت لين عن معنى هذا الكلام وهى تنتظر زوجها ليعاود الحديث. لكنها تأكدت من أمر واحد وهو أنها ستبقى حتى يأتى المدعو بوريل علها تشبع فضولها ويصدق الحدس الذى أنبأها بأن مصيرها ومستقبلها يتعلقان بقدوم هذا الرجل.

- ... كان على الأخذ بنصائحك يا أولاف والكف عن مطاردته، خصوصاً بعد أن أصبحت مثقلاً بالمسؤوليات.

خفق قلب لين بشدة إذ فهمت أنه يعنيها بالكلام على «المسؤوليات».

- ولكنك تعلم يا أولاف أنى لا أقبل بالهزيمة. وأنا متفائل بأنى إذا تمكنت من لقاء بويل والتحدث إليه فسأسوى كل هذه الأمور معه.

أقفل الغجرى الخط بعد قليل فقررت لين العودة إلى غرفتها قبل أن يكتشف زوجها غيابها. ولكن الحظ أبى إلا أن يوقعها فى مشكلة جديدة. فما كادت تخطو حتى تعثرت بغصن شجيرة وهوت بقوة فارتطم رأسها بالأرض وصاحت من الألم. لم تمر ثانية على سقوطها حتى كان رادولف إلى جانبها فحملها إلى المنزل على جناح السرعة.

أحست بكل شىء أمامها يتراقص. ومع ذلك لمحت فى عينى زوجها مزيجاً من الغضب والأسى. لقد خدعته بعدما تأكد من أنها لن تحاول الفرار أثناء غيابه. توقعت العقاب على عملها لكن الغجرى ضبط أعصابه واهتم باسعافها.

- أنها كدمة لا بأس بها على الاطلاق، سأحضر شيئاً يريحك.

نظر إليها وأضاف:

- لماذا فعلت ذلك؟

- لا تعتقد أنى كنت أنوى الفرار. على العكس...

لم ينتظر الغجرى سماع المزيد فقاطعها حانقاً:

- لا تكذبى! ماذا عن حقيبة اليد هذه؟

قالت بصوت ضعيف والألم فى رأسها لا يكاد يطاق:

- اعطنى فرصة لكى أشرح لك ما حدث!

- من الواضح أنك لست على استعداد للبقاء برفقة غجرى من حثالة المجتمع.

أخذ رادولف يقول بشبه همس:

- كان علىّ أن أعلم أن المسألة ستصل إلى طريق مسدود لا محالة.

- ما الأمر يا رادولف، أخبرنى.

أخفت نبرة التوسل فى صوتها الحب الجارف الذى يكنه قلبها لهذا الرجل الغامض الواقف أمامها والمرارة تكاد تحطمه على رغم جبروته

www.elromancia.com

واستبداده.

- ما الفائدة من اطلاعك على الحقيقة مادمت تحتقرينني وتصرين على أنني غير أهل لأن أكون زوجًا لك؟

أين التعالى الذى قابلها به فى السابق؟ أين الغطرسة والكبرياء؟ لقد تحول غضبه إلى ذل وصلفه إلى مهانة. ولما حاولت لين، مدفوعة بشعور الذنب، تطييب خاطره أسكتها باشارة من يده.

- لا تحاولى اصلاح ما فسد. سأعرض عليك اقتراحاً أرجو أن توافقى عليها ولكن بعد أن تتناولى هذه الحبوب وتنامى قليلاً.

نهضت لين وأسرعت نحو غرفة النوم حانقة وهى ترغب برمى زوجها الغامض بأحد التماثيل لعله يخرج عن صمته المطبق.

- ما بك يا لين؟

- بالله عليك! أطلعنى على الحقيقة فهذا من حقى.

- أى حق هذا؟

- أنا زوجتك... ولى الحق فى معرفة كل شىء.

قاطعها بضحكة ساخرة تخالطها اللوعة.

- لا أستطيع إطلاعك على أسرارى ما دمت لا تعتبرين نفسك زوجتى.

- ولكنك كنت على وشك البوح بالأمس.

- كدت أفعل لأنى خدعت فيك.

توقف فجأة وناولها الدواء قائلاً:

- دعينا من هذا الموضوع وتناولى الدواء ليخف الألم.

- لا تخف على فلن أموت.

- هيا إلى السرير فأنت تعبة.

- لا أريد أن أنام!

هددها بلهجة آمرة:

- لا تجبرينى على حملك إليه بقوة!

تناولت الدواء وتوجهت إلى سريرها وقبل أن يخرج من الغرفة سألته:

- لماذا لن تبوح لى بكل شىء؟

- لأن نظرتك إلى لم تتغير مع الأسف. والدليل على ذلك انك حاولت الفرار. فلنكن صريحين ونعترف بأننى لست مؤهلاً لأكون زوجاً لك، وإن كنت أرى بأنك معجبة بى.

لم ترض لين بهذه الحقيقة فصاحت معترضة:

- معجبة بك؟ يا لك من مغرور!

فوجئت المرأة بأن زوجها لم يغضب بل قال لها بهدوء جعلها تخجل من كذبها:

- اؤكد لك أنك معجبة بى وترتاحين لوجودك معى. ولكنك غير قادرة على التأقلم مع حياتى، وعلى التخلص من عقدة التفوق.

www.elromancia.com

- حسناً، أعترف بأنى أشعر نحوك بالتفوق إذا كان هذا يرضيك.

- اعتراف غير مقنع تماماً. سنجد فرصة أخرى للتصارح أما الآن فإلى النوم!

جاء بقفل أغلق به النافذة بطريقة لم يعد ممكناً معها فتحها.

- آسف يا حلوتى ولكنى مضطر لفعل ذلك.

- أمن العدل أن تجعلنى سجينة هذه الغرفة؟

تابعت متوسلة:

- أعدك بأننى لن أهرب.

- لن أرجع عن قرارى فالتجارب السابقة معك لا تشجعنى على الثقة بك.

خرج رادولف من الغرفة وترك زوجته وحيدة فى سريرها تنتظر المجهول. لكن الألم والتعب تحاملا عليها فأغمضت عينيها ونامت.

٩. الوحش الضارى

أفاقت لين مذعورة على صرير باب غرفتها يفتح ورأت رادولف يطل برأسه فسارعت إلى القول:

- أدخل فأنا بخير ولم أعد بحاجة إلى النوم. كم الساعة الآن؟

- الواحدة ظهراً. كيف تشعرين؟

استنتجت لين من ملامح وجهه أن بوريل لم يأت بعد.

- صرت أحسن بكثير فالصداع اختفى والحمد لله.

- أتستطيعين تناول الطعام؟

- أعتقد أن فكرة الأكل صائبة جداً. ماذا لدينا اليوم؟

- لدينا بعض السمك المشوى.

- هل تعد قائمة بما تستعمله لتسدد ثمنه لصديقك؟

أجاب الغجرى مبتسماً:

- لا، فصديقى لا يعرف ماذا يملك لكثرة غناه.

- ألن تستطيع التخلى عن عادة السخرية هذه؟

www.elromancia.com

- ألن تتخلى أنت عن عادة طرح الأسئلة مادمت تعرفين طريقة إجابتى عليها؟

- يا لك من لغز محير! اكتشفت أنك ذو شخصية مزدوجة.

- بالله عليك أخبرينى عن هذا الاكتشاف العظيم!

- أنت تتحول مثلاً من حمل وديع إلى وحش مفترس!

تحسس الجرح الذى ماتزال آثاره ظاهرة فى وجنته وقال:

- وحش مفترس! لقد قدتنى بتصرفاتك الخرقاء إلى أفعال ما كنت أتصور أنى سأرتكبها يوماً.

ارتبكت لين لأنها لا تستطيع كتم شعورها بالذنب كلما رأت ذلك الجرح فى وجه رادولف، وأن يكن ذلك الشعور لا يعنى أن الغجرى لا يستحق الضرب... لا بل كان يستحق أكثر!

- أتريد مناقشة الاقتراح الذى تحدثت عنه؟

لم يجب الغجرى على الفور بل نظر إلى ساعة الحائط قلقاً من تأخر بوريل فى الوصول.

- سنبحثها بعد ذلك بعد أن تستقر أوضاعنا.

أيقنت لين أن لا جدوى من متابعة الموضوع مادام رادولف لا يرغب فى إطلاعها على شىء. ماذا عنى باستقرار أوضاعها؟ تنهدت معلنة فشلها فى حل ولو جزء صغير من اللغز الكبير الذى يحيط بالغجرى ذى الشخصية الغريبة.

- أحياناً عندما تتكلم، لا أراك غجرياً يا رادولف!

- ومع ذلك أنا غجرى ابن غجرى.

تفحصت لين عينيه السوداوين اللتين تعلمت قراءة ما فيهما من أحاسيس: الغضب والحنان، الهوى الجامح الذى تلظت بناره ومؤخراً تعلمت فيهما قراءة الطيبة، الندم، الأسف والحزن العميق أما فى هذه اللحظات بالذات فتقرأ فيهما تحدياً كأن رادولف ينتظر منها أن تحاول انكار كونه غجرياً. أنه يعلم ما يدور فى فكرها من أسئلة محيرة، لكنها تجاوزت التحدى وقالت:

- ما سبب بقاءنا هنا ليلة أخرى؟

كانت تعلم أن السبب هو رغبة رادولف بلقاء بوريل، وبالفعل لم يخيب زوجها ظنها عندما أجاب:

- أنا أنتظر شخصاً هنا.

تظاهرت لين بعدم معرفتها بذلك فتعجبت وقالت:

- تنتظر رجلاً أو امرأة؟

- أنتظر رجلاً.

- عجيب حقاً أن تستضيف زواراً فى هذا المكان!

قالت لين ذلك وعيناها تنظران إلى الأرض مخافة أن تفضحاها.

- لا يفاجئنى ذلك يا عزيزتى فهناك الكثير من الأمور التى تعتبرينها غامضة. وأعدك بأنها ستتوضح عندما أطلعك على خطتى.

ماذا حدث لصوت رادولف الآمر؟ لماذا هذا الارتجاف الذى يخفى خوفاً من أن ترفض لين اقتراحه.

www.elromancia.com

- ما تفعله مجرد تسكين للألم وتأجيل للمشكلة، فأنا ضقت ذرعاً بهذه الأسرار!

- الخطأ خطأك... لو لم تعتبرينى حثالة المجتمع لما حصل كل ذلك.

لم تعرف لين كل هذه المرارة والحزن فى صوته قبل الآن، ولم تر شفتيه مرتعشتين ويديه ترتجفان. ثقته الكبيرة بنفسه لم تفلح فى اخفاء توتره وانفعاله وكأن مستقبله معلق على ما سيحدث فى الساعات القليلة المقبلة.

من جهتها حافظت لين على هدوئها وتكلمت يدفعها الحب المسيطر على جميع تصرفاتها وأقوالها:

- ألم يخطر ببالك أنى غيرت رأيى فيك؟ لقد قلت ذلك تحت تأثير الصدمة والهلع! أى إنسان يقول أشياء ثم يندم، كما يفعل أشياء ثم يندم.

كانت تشير بكلامها إلى غلطتها المشتركة، غلطتها فى وصفها له بحثالة المجتمع، وغلطته فى ضربها وارعابها. لا ريب فى أن رادولف نادم على استعماله العنف وأنه لن ينسى ما فعلت يداه بسهولة.

- راجعت ضميرى مراراً بشأنك. أقر بأن عندك ازدواجية فى الشخصية وأن فيك جانباً سيئاً ذكرته مرة ولكنك تملك جانباً حسناً لا أنكر إعجابى به.

تبع ذلك سكوت تام، سكوت دهشة بحث خلاله رادولف عن عينى زوجته ليفهم أكثر. ولكنها هربت من نظراته لا تكاد تصدق ما تفوهت به. كانت على وشك الاعتراف بحبها لا بل هى فعلت بطريقة غير مباشرة. إذ لا مفر من كون رادولف فهم ذلك من قولها هذا وتصرفاتها فى المدة الأخيرة.

أحست لين بالانكسار لأنها لم تستطع مقاومة الحب الذى نما فى داخلها تجاه هذا الرجل. رغم أن لقاءها به حفل بالذعر والخوف. ورغم أنها تأبى فكرة العيش زوجة لفجرى. جماله البدائى وطبيعته العفوية المتسلطة سيطراً على كيانها كالقدر المحتوم. ولم تنجح فى الافلات من قبضتهما ومن نزعتهما الاستحواذية.

عندما نظرت إليه أخيراً شعرت أن الأمر قد فصل، وأنها مستعدة للمضى حتى النهاية ولتسليمه الدفة ليقودها إلى حيث يشاء. قبلت بالعيش مع الفجر مهما كان رادولف ومهما فعل. وأدركت أن ارتباطها به ليس مؤقتاً كما تصورت. بل نهائياً.

أخذ الفجرى يهز رأسه غير مصدق ما سمعت أذناه.

- إذا صح ما تقولين يا لين فهناك أمل كبير لنا!

ظهر للين جلياً أن عبئًا كبيراً نزل عن كاهله لما تكلم، وأن آفاقا جديدة فتحت أمام عينيه. أيحبها رادولف؟ أيمكن أن يتخلى عن مجتمعه الفجرى وأهله من أجلها؟ أمن الممكن أن يعيشا حياة طبيعية فى منزل صغير ويتخذ رادولف مهنة شريفة يرتزق منها ويربى أولادهما تربية صالحة؟

- لين، أتعنين ما قلت حقاً؟ ألن تحاولى الفرار والرحيل عنى؟

لم يدم ترددها طويلاً وسرعان ما منت عليه بأحلى ابتسامة وقالت بصوتها الحنون:

- أعنى كل حرف خرج من فمى. لن أتركك أبداً.

توقف الكلام عند هذا الحد. وأظهر الزوجان ارتياحاً هادئاً بعد أن

www.rommuccia.com

لاحت بشائر الأمل بحياة سعيدة مديدة وأن يكن الأمر بحاجة لبعض التفاصيل البسيطة...

كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر لما رن جرس الهاتف. ترك رادولف الرسائل التى كان يكتبها وأسرع ليجيب على المكالمة.

رأت المرأة زوجها ينفعل، يتجهم،ويمتلىء غضباً عارماً. ثم يقول بصوت مخنوق:

- وهل ماتت؟ لم تمت ولكنها بحالة خطرة؟ يجب أن أعثر عليه قبل رجال الشرطة. يا إلهى لماذا لم يأت هذا الغبى إلى هنا كما كان ينوى!

تملكها خوف شديد لا تعلم سببه وهى تراقب زوجها يستمع إلى محدثه بقلق عميق. وعلمت ما سيقوله بعد أن أقفل الخط.

- على الخروج لبضع ساعات يا عزيزتى. أرجوك لا تطرحى على أسئلة لأن الوقت لا يجرى لصالحى. لا خوف عليك من البقاء هنا وإذا شئت أرسل لك السيدة وايت لتعتنى بك فى غيابى.

- أأستطيع مرافقتك؟

- لا يا لين فأنا لا أريد اقتحامك فى هذه المشكلة.

قالت له أنها ستكون بخير وبانتظار عودته على أحر من الجمر.

- أرجو أن أتمكن من العودة خلال الليل. وعلى كل حال سأكون هنا صباح الغد كحد أقصى.

طبع قبلة ناعمة على جبينها وأضاف:

- سيكون كل شىء على ما يرام بيننا قريباً يا ملاكى.

بعد ثوان معدودة انطلق بالسيارة بسرعة فنهبت الأرض نهباً مرسلة سحابة من الغبار فى الفضاء.

جلست لين وحيدة تحدق فى البحر الأزرق الهادىء المتلألىء تحت قرص الشمس الأحمر وليس لديها سوى أفكارها وتساؤلاتها تؤنس وحدتها. من يكون بوريل هذا؟ لا ريب فى أنه شخص مهم بالنسبة إلى رادولف وأنه ارتكب عملاً خطيراً يعرضه لمطاردة العدالة.

تنهدت بعد أن تعبت من التفكير وقالت بصوت عال:

- لماذا أتعب رأسى بهذه الأمور مادمت لا أعرف خيوط الحقيقة؟

تدريجياً بدأ الغسق يلف الدنيا ملوناً البحر بستار رمادى، والجبال بوشاح قرمزى ناعم. قررت لين أن تقوم بنزهة بعد العشاء الخفيف الذى تناولته. وبعد عودتها تمددت على كرسى مريح فى غرفة الجلوس المضاءة بنور شاحب يضفى عليها جواً شاعرياً يحتاج إلى وجود رادولف ليكتمل! تمنت أن يكون لها يوماً بيت كهذا تعيش فيه مع من تحب، ولربما تحققت أمنيتها متى عثر رادولف على وظيفة محترمة.

شغلت المرأة نفسها بقراءة بعض المجلات حتى لا تشعر ببطء الوقت وثقل الوحدة. كما استمعت إلى موسيقى ناعمة تبث بواسطة مكبرات للصوت منتشرة فى جميع غرف المنزل.

فى حوالى العاشرة أوت إلى فراشها بعد أن استبعدت عودة رادولف وما لبثت أن غفت على صوت حفيف الأوراق تتصادم بفعل النسيم العليل.

أفاقت لين من غفوتها مرتعدة على ضجة خفيفة فجلست فى

www.elromancia.com

سريرها صامتة، تاركة النور مطفأ. ولما لم تكرر الضجة غفت من جديد ولكن لدقائق قليلة فقط إذ سرعان ما فتحت عينيها على صوت الباب يفتح. ربما عاد رادولف ولم يشأ ازعاجها فدخل لينام في غرفة أخرى. همت لين بالنهوض لملاقاة زوجها ولكنها عدلت كي لا تزعجه إذ لاشك في أنه مرهق جداً، ومحتاج للوحدة لاستجماع أفكاره والتقاط أنفاسه. بامكانها انتظار طلوع النهار حتى تعرف منه الحقيقة التي وعد بكشفها حالماً ينتهي من مهمة العثور على بوريل.

أضاءت لين المصباح الكهربائي الموضوع قرب سريرها ونظرت إلى الساعة: الثالثة فجراً. لو كان معها كتاب تطالعه لأضاعت الوقت حتى تبدأ الشمس بالشروق وتطرد ظلام الليل الطويل. أتذهب إلى غرفة الجلوس وتحضر كتاباً من تلك الكتب المرصوصة على امتداد الجدران؟ تخلت لين عن هذه الفكرة مخافة ازعاج زوجها، فأطفأت النور وعادت إلى النوم.

استيقظت لين في الخامسة وقررت الانتظار ساعة حتى تنهض لأن رادولف أوى إلى سريره متأخراً. فلا ضرورة لايقاظه في هذا الوقت الباكر. وأمضت وقتاً طويلاً تحت الماء الساخن تنعش جسمها. جلست أمام المرآة تتزين استعداداً للقاء رادولف على أمل أن تكون مهمته انتهت على خير وتبدأ صفحة جديدة في حياتهما. بعد أن تأملت وجهها جيداً في المرآة ووجدته مرضياً ارتدت برنسا أبيض وخرجت إلى المشى تبحث عن الغرفة التي يحتلها رادولف.

في تلك اللحظة فتح باب إحدى الغرف فاستدارت لين مبتسمة... ولكن الابتسامة لم تطل لما رأت المرأة وجه الفجرى.

ماذا حل به؟ عادت إلى وجهه إمارات القسوة الوحشية التي طالعها بها في ذلك اليوم الذي لا ينسى حين حاول الاعتداء عليها...

همست لين في ذهول:

- رادولف... ماذا...

صمتت عندما رأت القميص مفتوحاً عن صدر يغطيه شعر أسود كثيف. أكثف مما عهدته فيه! رفعت عينيها إلى وجهه ووضعت يدها على فمها لهول المفاجأة: من أين أتى بهذه النظرات الرهيبة كشخص ظهرت أمامه خيالات أسطورية!

- رادولف أنت تخيفني...

كان مظهره كمجنون خطر وظنت لين أن الجانب الشرير طغى مرة أخرى على شخصيته المزدوجة وأن رادولف الذي يقف أمامها ليس رادولف الذي تعرفه... ولكنها ما لبثت أن ابتعدت أكثر من ذلك وأدركت أن هذا الرجل ليس زوجها!

توضحت الصورة أمام عيني المرأة بسرعة البرق. فهذا الرجل هو بوريل الذي يبحث عنه رادولف، وهو بالطبع الشقيق الذي حدثها عنه زوجها حيث أغفل أن يذكر لها أنهما توأمان!

تكلم الرجل أخيراً:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

تراجعت لين خائفة تبحث عن باب غرفتها لتقفل على نفسها هرباً من هذا الفجرى الشرير. وكان هلعها شديداً فانعقد لسانها ولم تستطع التفوه ولو بكلمة واحدة.

www.elromancia.com

كرر الرجل سؤاله وهو يقترب منها ببطء. لسوء حظها وجدت نفسها تصطدم بالجدار بدل أن تقودها قدماها المرتجفتان إلى الغرفة. فجحظت عيناها وفغرت فاها فى فزع رهيب عاجزة عن الحرك.

- رادولف... يبحث عنك...

ارتسم على شفتى الرجل ما ظننته لين ابتسامة وقال بخبث:

- سمعت أن أخى تزوج، فأنت إذن ولاشك الزوجة المحظوظة.

- أصبت.

- يا للصدفة! وأنا كدت أنال منك فى الغابة لولا تدخل ماندا لانقاذك!

أطلق بوريل ضحكة شريرة وأضاف.

- يا لسخرية القدر كدت أعتدى على زوجة أخى!

مرر أنامله الطويلة فى شعره الأسود الكثيف فزاد شكله غرابة واقتراباً من الجنون.

- لكن ماندا لن تستطيع انقاذك الآن سأصيب عصفورين بحجر واحد، ألهو قليلاً وانتقم من أخى المحترم بعد كل ما فعله معى.

بدا بوريل مستعداً للانقاض على فريسته الضعيفة ولين عاجزة عن الحركة بعد أن خانتها شجاعتها ولم تعد تقوى على الصراخ. مرت فى مخيلتها صور كثيرة ففهمت تقريباً كل ما حدث. حدقت فى وجه الفجرى جيداً وأيقنت أن الرجل الذى هاجمها عند تعطل سيارتها ليس نفسه لذى قابلته فى الغابة على الجواد! سيما وأن بوريل يحمل أثر جرح عميق فى مفرق شعره ظهر واضحاً عندما مرر يده فيه. آه لو

أنها انتبهت لهذا الجرح لكانت وفرت على نفسها وعلى زوجها الكثير من الآلام والأحزان! وفهمت من الآن لماذا كان رادولف يشير إلى الحادثة الثانية لما كانت تكلمه عن الأولى! فكيف له أن يذكر الأولى وهو لم يكن طرفاً فيها!

أمر بوريل بلهجة مفزعة:

- اقتربى منى يا امرأة! تعالى لأرى هذا الجمال عن قرب. لابد أن شقيقى المليونير يقدم لك ماترغبين من الثياب. أما أنا فلا أملك سوى نفسى أقدمها!

تبع ذلك ضحكة هستيرية ملأت أرجاء المنزل وأشعرت لين أن أذنيها ستفجران.

- لنأمل يا حلوتى أن يطول غياب رادولف حتى أتمكن من اللعب معك على مهل.

مد يده السمراء نحو لين فصارت المرأة على حافة الاغماء. ولما انقض عليها بدأت بمقاومته بكل ما أوتيت من قوة. كان لبوريل قوة ثور هائج، لكن يأس لين دفعها إلى الصمود وهى تنتظر وقوع معجزة ومجىء زوجها لينتشلها من براثن شقيقه المتوحش. ولكن زمن المعجزات ولى وشيئاً فشيئاً بدأت قواها تخور وعزمها على المقاومة يضعف إلى أن هدأت تماماً وتمددت خائرة القوى على الأرض. حملها بوريل إلى كنبة فى غرفة الجلوس، دبت فيها قوة مفاجئة فركلته بقوة على معدته وسقط على الأرض مغشياً عليه بعد أن ارتطم رأسه بحافة الموقد. كان هذا آخر مشهد تذكرته قبلما تفقد لين الوعى بعد ذلك...

www.elromancia.com

١٠ . امرأة فى قبضته

عادت لين إلى وعيها سريعاً، وفوجئت بأن بوريل مايزال ممدداً على الأرض والدماء تنزف من رأسه.

ـ ماذا فعلت؟ هل قتلته؟

تغلبت المرأة على خوفها واقتربت تتصت إلى قلبه تتحسس فيه الحياة. كم كان ارتياحها كبيراً عندما رأت أن قلبه لم يتوقف عن الخفقان. وعلى الفور أخذت تفتش عن رقم طبيب تتصل به هاتفياً ليأتى ويعتنى ببوريل. ولكنها ترددت بعد أن تساءلت عن رغبة زوجها بحضور طبيب ليعالج أخاه الهارب من وجه العدالة.

أسرعت إلى المطبخ وأحضرت حبلاً أوثقت به يدى الغجرى لتأمن شره إذا أفاق. ثم تفحصت الجرح فى رأسه ورأت أنه سطحى ولا يشكل أى خطر على حياته.

فتح الرجل عينيه فجأة وحدق فيها باستغراب:

ـ من أنت؟ أين أنا؟

شعرت لين نحوه بالشفقة رغم ما سببه لها من مصائب وويلات.

ـ أنا زوجة أخيك يا بوريل.

تخبط الرجل محاولاً فك قيد يديه ثم صاح:

ـ أين رادولف؟

ـ إنه يبحث عنك كما أبلغتك سابقاً.

قال بصوت قلق:

ـ لا يجب أن يجدنى هنا بأى ثمن، فكى وثاقى وإلا ...

حاول بوريل النهوض لكنه تعثر ووقع على وجهه:

ـ أرجوك، حلى وثاقى!

كادت لين أن تذعن لتوسله ولكن عقلها سيطر على انفعالات قلبها الرقيق. فجلست على المقعد تحدق فيه وتنتظر مجىء زوجها.

ما أكثر الفوارق بين رادولف وبوريل، هذه الفوارق لم تلاحظها لين فى السابق. الأول يهتم بأناقته ونظافته أما الثانى فقذر لا يعرف للنظافة معنى. كان يكفيها أن تنظر لأظافر بوريل حتى تفرقه عن أخيه، ولكنها لا تلام لأنها كانت تتصرف مدفوعة بالخوف والرعب.

ـ رادولف يريد أن يتحدث إليك فى أمور هامة.

ـ ماذا يريد منى هذا الوغد ألا يكفيه أنه سلب أموالى ونال التركة بكاملها على رغم كونى أكبر منه؟ كان محظوظاً عندما تعهد جدانا بتربيته وتعليمه فى حين بقيت شريداً فى الطرقات. تصورى أنهما منحاه اسم العائلة الكريمة!

سألته لين إذا كان يريد دواء مسكناً فرفض وتابع كلامه:

ـ لقد نزعاه من مخيم الغجر عندما كان فى السادسة عشرة

www.elromancia.com

وترعرع كأرستقراطى توافرت أمامه سبل العيش الواسعة! ولماذا حدث ذلك؟ لأن جدى العزيزين شعرا بتأنيب الضمير لما لقيته أمنا من ذل وهوان على أيديهما بعد أن نبذاها، لأنها فرت مع رجل غجرى وقعت فى غرامه. ولم يكفهما طردها بل اعتبراها ميتة ورفعا علماً أسود على قبة القصر للدلالة على ذلك. وبعد موتها أرادا التكفير عن غلطتهما تجاهها فاستفاد من كل ذلك أخى العزيز.

تمتمت لين بعد أن سمعت القصة وعرفت حقيقة زوجها:

- رفعا علماً أسود... عن أى قصر تتكلم؟

- قصر آل دوغى بالطبع! لست بحاجة لأن أخبرك بأنك متزوجة من سيد أحد أكبر القصور ورأس إحدى انبل العائلات فى أيرلندا! وهذا المركز من حقى لا من حق رادولف!

- اهدأ يا بوريل.

نصحته لين بالهدوء وهى ترتعد بدورها غير قادرة على استيعاب الحقيقة الصاعقة. اللوحة إذن التى رأتها فى قصر دوغى كانت لوالدة رادولف. رادولف هو السيد دوغى صاحب القصر وسيد الأراضى! وهو أعاد الاعتبار إلى أمه المنبوذة وأعاد تعليق اللوحة فى القصر. ولكن لماذا اختاره جداه دون أخيه بوريل الذى بقى مشرداً فى المخيمات؟

تكلم بوريل بعد قليل بصوت منخفض وحزين:

- على الذهاب قبل مجىء رادولف فأنا تحاشيته لمدة طويلة ولا أرغب فى لقائه الآن! تعمدت أن أسبب له الكثير من المشاكل والعار، وحاولت قتل ماندا ولكن اللعينة لا تموت! آه كم أردت أن الصق

برادولف صفة شقيق القاتل الغجرى الخطير بوريل!

توقف بوريل فجأة بينما هبت لين من مقعدها، بعد أن سمعت صوت موتور السيارة، لتلاقى زوجها.

- عزيزى رادولف، بوريل هنا!

- بوريل؟ أين هو؟

وعلى الفور سمع صوت بوريل يصيح من الداخل:

- أهلاً يا شقيقى المحترم! ماذا فى جعبتك الآن وقد أمسكت بى؟ قل ما عندك ودعنى أرحل لأنى لا أرغب فى البقاء معك ثانية واحدة!

- من حقك أن تبقى هنا وأن تبقى فى القصر ما شئت.

توقف رادولف عن الكلام عندما اندفع إلى الغرفة ورأى أخاه ممدداً على الأرض.

- ماذا حل برأسك وبيديك؟

وقفت لين تنتظر ماذا سيقول بوريل الذى أخذ يضحك كالمجنون.

- لقد أرعبت عروسك الناعمة يا شقيقى العزيز، ولو لم يخنى الحظ لكنت تمتعت معها بوقت جميل.

رأت المرأة زوجها يمتلىء غضباً:

- ماذا حدث يا لين؟ هل أصابك بوريل بأى أذى؟

لم يدع بوريل لين تجيب على السؤال فتولى المهمة عنها:

- لا تخف فالوقت لم يسمح لى بالذهاب معها حتى النهاية. أضعت الفرصة لما ركلتنى وطرحتنى أرضاً!

www.elromancia.com

وثب رادولف على أخيه والشرر يتطاير من عينيه فخشيت المرأة أن يقع ما لا تحمد عقباه. وهرعت تمسك بيد زوجها متوسلة:

- أرجوك يا رادولف، أخوك يحتاج إلى الشفقة الآن لا إلى العقاب.

هدأ رادولف لكلام زوجته بعد أن نظر إلى عينيها المليئتين بالرأفة والرحمة. واكتفى بالقول:

- لنشكر الله يا لين على أنك لم تصابى بأذى رغم أنه ولابد سبب لك بعض الفزع.

نظر رادولف إلى أخيه وأكمل بحدة:

- ماندا مصابة بجروح بليغة!

- كنت آمل فى موتها عندما جئت هنا هرباً من الشرطة.

- أبلغنى أولاف أنك أت. متى وصلت؟

لما ذكر بوريل ساعة حضوره نظر رادولف إلى زوجته مستفهماً.

- سمعت جلبة فى الليل ولكنى ظننت أنك وصلت ولم تشأ إزعاجى يا عزيزى.

هز رادولف رأسه. متفهماً وقال:

- ولاشك أنك اعتقدت أنى شغلت غرفة أخرى للسبب نفسه.

- تماماً.

بعدما اقنع بوريل شقيقه بحل وثاقه، تكفل بسرد كل ما حدث له. فى تلك الأثناء كانت لين تراقب زوجها ينفعل ضاغطاً على أسنانه ضابطاً نفسه حتى لا يهجم على بوريل ويسحقه.

بعد أن استمع إلى سرد أخيه التفت رادولف إلى زوجته وقال:

- كونت فكرة صغيرة عنى الآن، أليس كذلك؟

ساهم الشعور بالذنب ودقة الموقف فى دفع الدماء إلى وجهها، فاصطبغت وجنتاها بحمرة زادتها سحراً.

- اعذرنى يا رادولف فتصرفاتى معك كانت طائشة.

القت لين نظرة خاطفة على الجرح فى وجه زوجها وقالت:

- سأذهب إلى المطبخ لإعداد طعام فلابد أن لديكما الكثير لتقولانه.

- إبق يا عزيزتى فوجودك هنا يوفر على الكثير من الشرح والكلام.

- ولكنها مسألة خاصة لا علاقة لى بها.

- أنت زوجتى، ومن حقك الاطلاع على الحقيقة.

امتلأ قلب لين بالسعادة لثقة زوجها بها، فى حين كان بوريل مطأطأ الرأس منكسر النفس، تخفى عيناه دموع الندم والأسف.

جلست لين على كنبة قرب النافذة تستمع إلى «محضر الجلسة» بين التوأمين الغجريين.

بدأ رادولف الكلام بصوته الراقى ونبرته المتعالية:

- حسناً يا بوريل! زرعت البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عنك، ولكن لننس الماضى ولا أطلب منك الآن سوى قبول نصف التركة.

- لا! لن آخذ شيئاً فأنت سرقتنى!

لم يستطع بوريل هذه المرة كبت دموعه ففاضت من عينيه بغزارة أدمت قلب لين.

www.elromancia.com

توجه رادولف إلى لين شارحاً كيف ورث وحده ثروة عائلة دوغى كلها: هربت والدته، وهى صبية يافعة بعد، مع شاب غجرى وسيم كان بمخيم مع عشيرته فى مكان قريب من القصر. وهكذا نبذها أهلها ولم يلتفوا إليها رغم رسائلها المتكررة والتى أبلغتهم فى إحداها أنها حامل. ولم تكن تعلم بالطبع أن فى أحشائها طفلين!

أسند رادولف ظهره إلى حائط الموقد وأكمل سرد الحكاية المحزنة:

- ماتت أمى خلال الوضع ومع الأسف الشديد عهد بتربيتنا إلى عائلتين مختلفتين فافترقنا ونحن طفلان.

تمتمت لين والدموع تطفر من عينيها لهذه المأساة المحزنة:

- آه ما أقسى القدر!

علق بوريل على كلامها بحدة:

- ما أقساه تجاهى لا تجاهه! فقد وضعت فى عهدة رجل وامرأة شريرين لم يكلفا نفسيهما مشقة تربيتى. بينما قاد الحظ رادولف إلى امرأة طيبة رعته أحسن رعاية وأطلقت عليه اسم رادولف تيمناً بنبلاء البلاد. ولم تكتف المرأة بذلك بل أخذت تدعى وتشيع أنه ولد قبلى مع أن العكس هو صحيح!

- لم يستطع أحد إثبات من هو الأكبر. وعلى أى حال، الفرق بين ولادة توأم وولادة آخر لا تتعدى الثوانى أو الدقائق.

- لا تحاول اخفاء الحقيقة يا سيد رادولف. والزوجان اللذان ربيانى، تريزا وأوستن، أكدا لى أننى أكبر منك.

- لا أستطيع مناقشة قولك يا بوريل لأنى لم أكن واعياً ومدركاً عندها!

لم يقتنع بوريل بل أصر على قوله:

- أنا أكبر منك!

تجاهل رادولف كلمات أخيه وأكمل يسرد القصة قائلاً أن أولاف كان يعلم منذ البدء حقيقة أم الطفلين الحقيقة، لكنه لم يطلع أحداً على ذلك سوى من تعهد بتربيتهما. وذلك لاقتناعه بأن الجدين لن يلتفتا إليهما بسبب العار الذى سببته الابنة للعائلة.

هنا تدخل بوريل مقاطعاً:

- سمعت أن أولاف عاد عن رأيه واتصل بجدينا ليخبرهما بأن رادولف هو حفيدهما مهملاً إياى. وسبب ذلك اعتقاده أن رادولف يحمل من طباع ونبل والدته الكثير ليرحمه من حياة المخيمات الغجرية القاسية.

أكمل رادولف مصححاً إدعاءات أخيه:

- لم يتصل أولاف بجدى لأنه لم يشأ أن يسبب أى مشاكل للسيدة التى ربتنى، وأنا سعيد لأنه فعل ذلك.

أعجبت لين بشهامة زوجها الذى يهتم بمشاعر سيدة غجرية رعته أكثر من التنعم بالجاه والثروة، كما تذكرت كلماته لأولاف والتى قال فيها أنه لكان فعل الشىء نفسه لو كان فى مكانه.

أكمل الرجل:

- لو تركتها باكراً لصارت حياتها فارغة. وأنا أحببتها فعلاً لأنها كانت امرأة طيبة علمتنى القراءة والكتابة، زودتنى بالكتب لأنال ثقافة معقولة. أنفقت المال الوفير لتؤمن لى العيش الكريم.

توقف رادولف قليلاً وزاد بكل جدية:

www.elromancia.com

- لكن حياة الغجر وبيئتهم أثرتا فى شخصيتى بالطبع فلم أكن ذلك الشاب المحترم وأوقعتنى طباعى الشرسة التى ورثتها عن والدى فى مشاكل لا حصر لها.

مررت لين ملاحظة ملطفة:

- ولكنك ورثت الطيبة والنبل عن والدتك.

تدخل بوريل محدقاً فى الزوجين:

- كيف تعرفتما إلى بعضكما وتزوجتما بمثل هذه السرعة؟ أنت لم تقابلى رادولف قبل لقائنا فى المخيم لما تعطلت سيارتك، أليس كذلك؟

نظر رادولف إلى زوجته مستغرباً:

- تعطلت سيارتك؟ عم يتكلم بوريل؟

أطلق بوريل ضحكة عالية وقال:

- ألا تعلم أنى كدت... فى المرة الأولى!

لم تكن لين راغبة فى سماع بوريل يتكلم عن الموضوع ويضع القصة فى قالبه الخاص فأمرته بالسكوت:

- اصمت! دعنى أفهمك ما حدث يا رادولف.

- تفضلى لأن القضية أصبحت معقدة فأنت لم تذكرى لى شيئاً عن لقائك ببوريل.

أطلعته لين على كل ما حدث دون أن تهمل شيئاً. ولما انتهت كانت علامات الغضب بادية فى عينى رادولف الناظر إلى أخيه بكره.

- أيها الشرير! على أن أخنقك بيدى لا أن أعرض عليك المساعدة!

كان من الطبيعى أن يتعقد الأمر ويتراجع رادولف عن مساعدة أخيه بعد اطلاعه على ما حدث. لكن لين تدخلت راجية زوجها أن ينسى الموضوع ويساعد أخاه وعفا الله عما سلف!

وبعد معاندة طويلة رضخ رادولف لمشيئة زوجته وأعرب عن استعداده لمعاونة بوريل ليحظى بحياة شريفة.

وبدلاً من أن يظهر بوريل الامتنان لأخيه قال ساخراً:

- لكنك لن تسامحنى بالطبع.

- كيف أسامحك بعد ما حدث بينى وبين لين من مصائب بسببك!

هز بوريل كتفيه علامة عدم الإكتراث قائلاً:

- لا يهمنى ما حصل بينكما ولكن كيف لم تستطع زوجتك التفرقة بينى وبينك إلا هذا الصباح!

ضحك بوريل وأكمل:

- آه لو أنها لم تتعرف إلى وسمحت لى...

لم يدعه رادولف يكمل إذ قفز إليه وهم بضربة لولا تدخل لين فى اللحظة الأخيرة وفصلها بين الرجلين.

ترقرقت الدموع فى عينيها ورمقت زوجها بنظرة رقيقة:

- بوريل يبقى شقيقك الوحيد على رغم تفريق القدر بينكما. عليك أن تشركه فى مصيرك. فأما أن تكونا ثريين وأما أن تكونا فقيرين.

ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجهيهما.

- أتستطيعين مسامحة أخى يا لين؟

www.elromancia.com

قال رادولف ذلك بينما تمتم شقيقه:

- إنها امرأة... مختلفة. لم أر فى حياتى مثل هذا التسامح. يا ليتنى قابلت واحدة مثلها. لا مثل ماندا المفترسة...

طمأنته لين بصوتها الحنون:

- ستجد من يعتنى بك ويحبك يا بوريل فلكل رجل امرأة تناسبه.

عنت لين ما تقول لأن بوريل ليس شريراً بطبيعته، بل هو عاش فى بيئة غير صالحة وترعرع فى محيط يؤمن بالقوة وبالخروج على القانون وسيلة للتفوق والفوز.

تكلمت لين محاولة تخفيف وطأة التوتر السائد بين الرجلين:

- أكمل القصة يا رادولف. كنت تخبرنا عن المرأة التى ربتك وثقفتك.

بعد موت مربية رادولف مورين، بعث أولاف برسالة إلى الجدين يطلعهما على الوضع، ويرجوهما تربية رادولف وقبوله للعيش معهما فى القصر. رحب العجوزان الثريان بالفكرة لأنهما كانا وحيدين لا وريث لهما سوى قريب بعيد يعيش فى أمريكا.

قاطع بوريل شقيقه معترضاً:

- أنت تهمل جزءاً مهماً من القصة وهو أن أولاف لم يكلف نفسه مشقة البحث عنى.

- ربما لا تعرف يا بوريل أن أولاف سمع أن العربة التى كنت تعيش فيها مع الزوجين احترقت ومات جميع من فيها.

- كان عليه التأكد من ذلك لا تصديق الأخبار بسرعة. فأنا نجوت من الحريق ولم أصب إلا ببعض الحروق البسيطة.

أزاح بوريل الشعرات السود وأراهما أثر الجرح فى رأسه ثم تابع:

- لنفترض أن أولاف لم يعرف بوجودى حياً إلا منذ سنتين، فلماذا انتظر أسابيع عدة ليطلعك على الأمر؟ ربما خشى من معرفتك أن لك أخاً شريراً...

- لا أدرى ما الذى شغله عن إخبارى على وجودك.

- لم يرد افساد حياة رجل محترم باقحام أخ شرير ومتشرد فيها. فأنت نشأت فى أحسن البيوت وأرقاها بينما اضطررت لشق طريقى وحيداً منذ إن كنت فى العاشرة. والله وحده يعلم كم واجهت من الصعوبات لكى أستطيع الصمود.

ارتجفت شفتا بوريل فظنت لين أنه سيعود إلى البكاء، سيما وإنها لم تكن بحاجة إلى تشجيع لتنهمر دموعها. حاول رادولف تبرير موقفه وتصحيحه:

- دعوتك مرات ومرات لتأتى وتعيش معى فى القصر حيث تبدأ بتحصيل العلم والثقافة وتعاشر من يجب أن تعاشرهم من الناس. رفضت ذلك مع أنه من حقك أخذ نصف الأموال.

أكمل رادولف بكل أسى:

- اعتبرت أن فى الأمر تصدقاً ولكنك مخطىء. لأننى لم أعرض عليك إلا حقك، وكن على ثقة أنى مازلت عند عرضى ومستعد لنصبح صديقين نتعاون فى مواجهة مشاق الحياة وقساوتها.

تساءلت لين عما يمكن أن يكون أكثر عدالة من هذا العرض. وحبها لزوجها يتضاعف لما خبرته فيه من نبل وشهامة. نظرت إليه مبتسمة فرد الابتسامة بأنعم منها وقلبها يخفق طرباً بالحب الكبير.

www.elromancia.com

فكر بوريل ملياً بالأمر وأعلن:

- رفضت دعواتك السابقة لأنى كنت على قناعة أنى أكبر منك سناً، وأنى خدعت وحرمت من المال والتربية. أردت وأريد أن أصبح رجلاً محتوماً ولكن تغيرى صعب وقد بلغت الثلاثين. كنت محظوظاً يا رادولف لأنك تركت حياة الغجر منذ الصغر، أما ان تبدأ عملية تحول تنقلك من ضفة إلى ضفة وأنت فى الثلاثين فرابع المستحيلات.

تفهم رادولف رأى أخيه معترفاً أنه، عندما كان فى السادسة عشرة، وجد صعوبة قصوى فى التخلص من عاداته الغجرية والتأقلم فى نمط الحياة الأرستقراطية المعقدة.

- لا مجال للمقارنة يا لين بين تعقيدات وشكليات حياة القصور وحرية وفلتان حياة الغجر. ولا أنكر أنى صممت مراراً على الفرار والعودة إلى المخيم لأعيش بين قومى وأصحابى.

قدرت لين لما سمعت ذلك مدى شجاعة زوجها وقوة إرادته اللتين جعلتاه يصمد ويبقى فى القصر مع جدين مستبدين، ولا عجب فى كونهما كذلك، شأن كل أصحاب الثروات والألقاب النبيلة. لا ريب فى أن رادولف بذل مجهوداً جباراً ليعتاد على متطلبات حياة القصور ويتخلى عن اللامبالاة التى طبع عليها فى حياته الغجرية.

علق بوريل على كلام أخيه:

- لو أنك كنت هربت من القصر لربما كنت أنا مكانك الآن.

- ربما.

قطبت لين حاجبيها غير قادرة على تصور بوريل المتشرد فى ملابس أرستقراطى عريق. أعاد رادولف سؤاله:

- ما أريد أن أعرفه منك يا بوريل هو هل تقبل بعرضى طارداً من ذهنك فكرة التصدق والحسنة؟

- أتعرض على السكن فى القصر؟

- أعتذر إذا قلت أن هذا مستحيل لأنك أرعبت زوجتى مرتين وهى ستنزعج من وجودك فيه.

- هذا يعنى أنك غير مؤمن بامكانية عودتى إلى الطريق الصواب.

أضاف بوريل قبل أن يتمكن أخوه من التعليق:

- لن أستطيع يا رادولف معرفة سبب انشغالك بى وبحثك الدائم عنى. جبت مخيمات البلاد كلها مرتدياً ثياباً لا تليق بمقامك حتى لا تشعر الغجر بأى نقيصة، وشاغلاً عربات قذرة لا تصلح لأن تكون مكاناً لرمى النفايات فى قصرك... والله لو كنت مكانك لتخليت عن البحث مرسلاً إياك إلى الجحيم!

اكتفى رادولف بابتسامة خفيفة بينما أكمل بوريل :

- أتعجب لماذا أنبأك أولاف بوجودى مع أن سلوكى كان يسبب له القرف! أنا لص، محتال، قاطع طريق... حتى الغجر لا يرضون بوجودى بينهم... لا حل لى إلا بالاختفاء بعيداً عن أنظار الناس!

نظرت لين إلى زوجها فرأته يفكر بعمق عن حل لمشكلة بوريل، وأرادت أن تتكلم لكن زوجها سبقها:

- لا أحد يكرهك يا بوريل فأنت عدو نفسك المبين. لماذا لا تطوى صفحة الماضى وتبدأ حياة جديدة؟ أخبرنى أولاف مرة إنك بحاجة إلى رأسمال صغير لتهاجر إلى استراليا وتؤسس مصنعاً للخشب مع صديق لك، فهل مايزال المشروع قائماً؟

www.elromancia.com

- لا أعلم... فالرجل سافر إلى استراليا وسمعت أنه.. يجد صعوبة فى تسيير العمل بسبب ضائقة مالية.

- المال ليس مشكلة فمتى قررت العمل سأمدك بما يلزم.

- أنا مصمم على العمل ومستعد للسفر إلى استراليا يا رادولف.

تنفس رادولف الصعداء وقال:

- وهل تقبل بنصف أموال التركة؟

- ولكن المال جاء بالوصية أنه لك؟

- أموال عائلة دوغى يا بوريل، حق مشترك علينا تقسيمه بالتساوى.

- لا أجرؤ على أخذ نصف الأموال فى لوقت الحاضر،! لأننى لا أجد نفسى قادراً على إدارتها. اعطنى ما يلزم لانشاء المصنع واحفظ الباقى، فإن احتجت إلى شىء أرسل إليك.

- كما تريد يا بوريل، سأعمل على مدك بالمال اللازم فى أى وقت...

قاطعه رنين الهاتف فهرع ورفع السماعة خائفاً من أن يكون فى الأمر سوء، لكنه ما لبث أن انفرجت أساريره وأبلغ زوجته وشقيقه:

- ماندا بحالة جيدة ولن تتقدم بشكوى إلى النيابة.

اكتفى بوريل بالقول:

- يسرنى سماع ذلك.

- تعلم يا بوريل إن كونيل أوقع نفسه فى مشاكل عديدة وهو خائف ويريد السفر ليسوى أوضاعه ويبنى مستقبله. ما رأيك باصطحابه إلى استراليا فأنا وعدته بالمساعدة.

نظر رادولف إلى زوجته وقال ضاحكاً:

- لا تظنى أن كونيل كان ينوى مساعدتك على الفرار فقد اعترف لى بكل شىء. الست مسرورة يا عزيزتى لأنه لم يساعدك؟

- نحن لم نعد إلى المخيم لأعرف حقيقة ما حدث.

- صحيح يا لين ولكنه كان موجوداً فى أحد المخيمات التى مررنا بها.

استوضح بوريل شقيقه:

- ماذا عن كونيل والهرب؟

لم يجب رادولف بل وعد:

- سنطلعك على ما حدث فى المستقبل عندما يأتى لزيارتنا.

وافق بوريل مدركاً فى قرارة نفسه أنه متى غادر هذا المكان لن يعود أبداً.

- لنعد إلى موضوع كونيل يا بوريل. إنه شاب ذكى ويستحق أن يتمتع بأكثر مما تقدمه حياة الغجر. واعتقد بأنه سيكون لك عوناً كبيراً فى أعمالك.

- لا مانع عندى فى اصطحابه.

- أتمنى لك وله كل التوفيق وآمل بأن تتوصل إلى تحقيق طموحاتك بالعزم وقوة الارادة.

وقف بوريل على قدمين مرتجفتين باحثاً عن الكلمات المناسبة ليعتذر عما بدر منه، لكن شقيقه لم يود احراجه فسارع إلى القول:

- يجب أن تستريح الآن يابوريل وتتناول حبوباً مزيلة للصداع.

www.elromancia.com

- فكرة حسنة. أريد أن أسألك شيئاً أخيراً يا رادولف، هل تهتم بالترتيبات القانونية لسفرى؟

- لا تشغل فكرك لهذه الأمور وثق بى. إما الآن فادخل إلى غرفة النوم وخذ قسطاً من الراحة.

جلس الزوجان وحيدين على الشرفة يتأملان زرقة البحر الهادىء.

- أخيراً يا حبيبتى الغالية لم يعد هناك ما يعكر صفو حياتنا.

- أعتقد أن مشكلة بوريل انتهت على خير.

- أشكر الله على ذلك.

أخذ يداعب شعرها بحنان وأضاف:

- كنت شهمة جداً تجاهه يا حلوتى على رغم ما فعله معك. آه كم سبب كلامك على اللقاء الأول لبساً وغموضاً، ولهذا كنت أستغرب موقفك منى.

- لو تحدثت مرة عن تعطل سيارتى...

- لقد أصبحت هذه الأمور جزءاً من الماضى بالنسبة إلى.

- وهو عندى كذلك.

- كنا ضحية ظروف معاكسة ولكننا خرجنا سالمين.

فكر رادولف قليلاً قبل أن يزيد:

- أتؤمنين بالحب من أول نظرة؟

- ربما... وأنت؟

- منذ أن رأيتك فى الغابة علمت أنك الفتاة التى أبحث عنها.

غرقت فى غرامك حتى أذنى وتعذبت كثيراً لاحتقارك إياى.

- ألم تتساءل يوماً لماذا ضربتك بالسوط؟ أظننت أنى فعلت ذلك بدون سبب؟

- حدث كل شىء بسرعة لم تدع لى مجالاً للتفكير وانجررنا بعد ذلك وراء المواقف الانفعالية والرغبة بالنتقام. أعترف لك يا لين أنى أعانى من مركب نقص كونى غجرياً، فأنا أخاف من أن تكون بعض تصرفاتى نابعة من الماضى الذى يطاردنى ومن انتمائى الاجتماعى. وأنت زدت الطين بلة عندما صنفتنى غجرياً متشرداً حقيراً.

- أنت مخطىء يا حبيبى، كل ما فى الأمر أننى كنت مذعورة من اعتدائك على دون أن يخطر لى أن الشخصين مختلفان. لا تتصور كم كانت المفاجأة كبيرة عندما رأيتك فى الغابة فظننت أنك لحقت بى من المخيم حيث تعطلت السيارة حتى تكمل ما بدأته هناك.

- من عجائب الصدف حقاً أن تلتقى ببوريل ثم بى فى الغابة، ولكن القدر لعب لعبته لجمعنا.

رمقته بنظرة حنان ووضعت يدها على الجرح ثم همست:

- أتعتقد أن أثره سيزول؟

- بالطبع سيزول.

- إن لم يحدث ذلك لن أغفر لنفسى أبداً.

ضحك رادولف وقبلها بحنان على جبينها:

- سنذهب غداً إلى بيتنا حيث نبدأ برسم طريق حياتنا الصحيح.

- فكرة رائعة يا حبيبى.

www.elromancia.com

كانت فرحة لين كبيرة إلى درجة لا توصف، فالأمور تطورت بشكل مثير فى الأسابيع الأخيرة، ووجدت نفسها فى عالم آخر لم تكن تحلم أنها ستصبح جزءاً منه، بعدما كانت تدفن أوقاتها وراء مكتبها وبين جدران شقتها الموحشة.

- أصحيح إنك أمضيت سنتين فى البحث عن بوريل؟

- نعم، ولكن ذلك لم يمنعنى من الاهتمام بادارة أعمالى. تنقلت بين المخيمات بسيارتى. إلا عندما التقيتك فقد كنت ذاهباً إلى المخيم على الحصان لأنه قريب نسبياً من القصر.

- ولماذا تظاهرت بكونك غجرياً فظاً؟

- ألن ننتهى من الاستجواب؟ حسناً، لأنك جرحت شعورى، واردت ان ارد لك الكيل كيلين. كدت، فى مرات عديدة، اعترف لك بالحقيقة ولكن عنادى كان يمنعنى.

دفنت لين رأسها فى صدره وهمست:

- بذلك تعلمت أن أحبك لذاتك دون النظر إلى انتمائك، وأنا سعيدة لأنك تعرف أنى أحبك من قبل اطلاعى على شخصيتك الحقيقة.

- أظن أنك اكتشفت حقيقة مشاعرى نحوك يوم كنا فى السيارة.

- هذا صحيح يا رادولف. وإن حاولت مقاومة هذا الحب لأن الحياة الغجرية لا يمكن أن تروق لى.

- لكن مقاومتك كانت فاشلة!

- اعترف بذلك وإنى كنت مستعدة لمتابعة الرحلة معك حتى النهاية.

- ألا تريدين الاطلاع على الاقتراح الذى تحدثنا عنه؟

- بالطبع.

- لم أكن أستطيع تصور نفسى أعيش بدونك يا لين. ففكرت أن اشترى لك بيتاً خاصاً تعيشين فيه بحرية، مقابل سماحك لى برؤيتك مرة أو مرتين يومياً. وبذلك تتخلين عن فكرة الفرار.

- أتريد معرفة رأيى الحقيقى فى اقتراحك يا رادولف؟

- نعم.

- إنه أغبى اقتراح سمعته فى حياتى!

- ولماذا؟

- لأنك تعلم أنك لن تستطيع التقيد به وانك ستجبرنى بعد مدة على... على...

احمر وجهها خجلاً فيما رادولف يطلق ضحكة عالية تعبر عن الارتياح والسعادة.

- بالله عليك يا لين أجيبى بصراحة: هل كنت ستتقيدين ببنود الاتفاق على الاقتراح؟

ترددت فى الاجابة وعيناها هاربتان من نظراته الطاغية.

- كنت... كنت سأنهار وأقوم باغرائك لتطرح كل ما خططت له جانباً!

ضحك الزوجان راضيين بالسعادة التى طالما بحثا عنها حتى وجداها بعد عذاب وشقاء. طوق رادولف خصر زوجته وقاما يتنزهان فى الحديقة حيث بدت الأزهار أكثر تفتحاً احتفاء بالحب الكبير.

- سنأتى إلى هذا المنزل مرتين أو ثلاثاً فى السنة لقضاء العطلة.

- أن لهذا المكان فى نفسى آثاراً حلوة يا حبيبى لأننا فيه وجدنا كنز

www.elromancia.com

السعادة الثمين.

لاحظ رادولف انزعاجاً على وجه زوجته فسألها:

- ما بك؟

- هل يعتبر زواجنا شرعياً؟

- يعتبر كذلك طبقاً لشريعة الغجر.

- وهل تعترف به السلطات الأيرلندية؟

- لا أظن ولكننا سنصحح الوضع حالما نصل إلى البيت.

استرجعت لين كل ما حدث منذ لحظة اختطافها حتى الساعة، كيف أرغمت على الزواج وعلى كتابة الرسائل إلى أصدقائها... كيف بقيت سجينة العربة يترصدها الغجر... وتذكرت يوم أشبعها رادولف ضرباً... صارت هذه الأحداث ذكريات يمحوها حب رادولف والأمل الكبير المشرق بحياة سعيدة.

- هل ستجيبين على رسائل أصدقائك؟ فبعضها وصل بالفعل إلى القصر رداً على رسائلك.

- بكل تأكيد.

- وماذا ستقولين لهم؟

- سأقول إنى متزوجة من أروع وأطيب رجل على سطح الأرض.

- أتعنين حقاً ما تقولين؟

اكتفت لين بالنظر إليه والحب يملأ عينيها، فاستوثق الغجرى أنها ستكون فى «قبضته» إلى الأبد.